

وقصص أخرى

تأليف : بوتراند راسل

ترجمة : شاكر إبراهيم

مراجعة : عبد الحليم البشلاوي



الألف كتاب (الثاني)

١

أعلام الأعلام
وقصص أخرى

أحلام الأعلام

وقصص أخرى

تأليف : برتراند راسل
ترجمة : شاكر إبراهيم
مراجعة : عبد الحليم البشلاوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى

البير جورجى

حلم مستر باودلر

هناء أسرة

لم يحدث يوما أن أظهر السيد « باودلر » المؤلف الجدير بالتقدير لكتاب « شكسبير الأسرة » الذى يمكن أن تقرأه أكثر الفتيات براءة دون أن يتضرع وجهها استحياء - فى يقطته أدنى شك فى جدوى ما يضطلع به من أعمال ، لكن يلوح أنه مازال يكمن فى أعماق اللاشعور لذلك الرجل الطيب ، صوت خافت طابعه الخبث والسخرية • لقد كان من دأبه فى أيام الآحاد أن يوزع بسخاء على أفراد أسرته قطعة من لحم الخنزير ، دون أن يترك لنفسه شيئا يذكر ، تصحبها البطاطس المسلوقة والكرنب ، تليهما شطائر الكعك • وكان يخص نفسه ، دون سائر أفراد الأسرة ، بقدر معقول من الجعة الصفراء اللون ، كما كان من عادته أن يقوم بنزهة قصيرة عقب هذه الوليمة ، ثم حدث يوما أن انهمر المطر غزيرا وتساقط الجليد ، فسمح لنفسه بالخروج على هذا الروتين فاذا هو يستريح فى مقعد يطالع كتابا مفيدا ، ولما لم يكن الكتاب المفيد جدا ممتعا فقد أخذته سنة من النوم • وفى غفوته انتابه الكابوس التالى :

ساد العالم بأسره الاعتقاد بان « مستر باودلر » مثال الفضائل مجتمعة ، وما انفك هذا الاعتقاد يسيطر على الكثيرين ، بيد أن سببا رهيبا حمله يوما على أن يشك فيما اذا كان يمثل حقا كل ما توسمه فيه جيرانه من صفات حميدة ••

وكان « باودلر » قد شن ، فى شبابه ، حملة ضارية على ويلكس (الممثل لويلكس والحرية) ، الذى كان يعتبره - ولم يعد لذلك سببا - فاسدا داعرا ، والذى كان وقتها قد تخطى ربيع الحياة ، ولم يعد قادرا على الانتقام الذى كان أمرا طبيعيا بالنسبة له فى السنين الخوالى ، ومن هناك ترك للشباب «سبفكنز» فى وصيته قدرا وافرا من المال بشرط أن يجلب الدمار على رأس مستر باودلر بكل ما أوتى من قوة • ويؤسفنى القول أن مستر « سبفكنز » قبل التركة الحقيرة بلا تردد •

وبغية تنفيذ ما انطوت عليه وصية « ويلكس » من شروط زار سيفكنز « مستر باودلر ، تحت ستار الصداقة الزائفة ، فرآه ينعم بغبطة عارمة وبهناء تام بين أفراد أسرته • كان يحمل فوق كل من ركبتيه طفلا وهو يردد : « امطط حصانا خشبيا الى محطة بانجورى كروس ! » • وسرعان ما أخذ الطفلان الآخران يصيحان : « لقد جاء دورنا يا أبانا » • وستمتمعا ، بدورهما ، بفترة من التأرجح والمرح • أما مسز باودلر البدينة الحسنة الطويلة ، من لا تبرح الابتسامة شفقتها ، فراحت تراقب المشيد السعيد وقد انهمكت في اعداد الشاي •

وبتلك اللباقة الرائعة التى حملت مستر ويلكس على اختياره ، قاد سيفكنز الحديث الى الموضوعات الأدبية التى كان يعلم أنها عزيزة على قلب مستر باودلر ، والى المبادئ التى كانت تدفع ذلك الرجل النبيل الى تعديل مؤلفات كبار الكتاب لتكون على نحو يسمح بتداولها بين الفتيات • وظل الوثام مخيما حتى نهض مستر سيفكنز لينصرف عقب احتساء الشاي ، وبعد أن رأى مسز باودلر عبر باب المطبخ وهى تغسل أقداح الشاي ، وعند انصرافه بإدركه بالقول :

« عزيزى باودلر ، لقد تأثرت بما تنعم به من دناء عائلى ، لكن بعد دراستى المستفيضة المدققة لما حذفته من أعمال « شاعر أفون » لا يسعنى الا أن أستنتج أن هؤلاء الأطفال الباسمين مدينون بوجودهم للتناسل العذرى • (Parthenogenesis)

فاستشاط السيد باودلر غضبا وصاح : « أخرج » • وصفق الباب فى وجهه ، لكن وآسفاه ، لقد تناهت الكلمة البشعة الى سمع مسز باودلر رغم قرقرة أقداح الشاي ، ولم تكن تفقه مغزاها ، فدفعها جهلها بها وما أبداه زوجها من اعتراض ، الى الاعتقاد بأنها كلمة نابية ولا ريب •

ولم تكن كلمة من الكلمات التى يمكنها أن تستفسر عن معناها من زوجها ، ولو فعلت لكان الجواب الوحيد هو : « يا عزيزتى ، انها تعنى ما لا يخطر ببال النساء الصالحات » ، ومن ثم لجأت الى أساليبها الخاصة • كانت تلم بكل ما يتعلق بالجزء الأخير من الكلمة (Genesis) أما مقطعها الأول فظل خافيا عليها • وذات يوم تسللت ، فى جراءة بالغة ، الى مكتبة زوجها فى غيبته ، وجذبت القاموس الكلاسيكى وراحت تقرأ كل ما ذكر حول المقطع (Parthenon) ، بيد أنها لم تفقه معنى تلك الكلمة الغريبة إذ لم يكن ثمة علاقة مطلقا بين مقطعيها •

وكان كلما باء بحثها بالفشل ، استبد بها الأمر فغدت أعمال البيت التي كانت تزاولها على الوجه الأكمل مهمة غير متقنة • واستغرقت في التفكير حتى نسيت اعداد « الجمبرى » مع الشاى يوم الأربعاء ، مع أن ذلك لم يغب عن بالها يوما واحدا من أيام الأربعاء منذ اليوم السعيد الذى ارتبطت فيه مسر باودلر بروابط القران المقدسة •

وبلغت الأمور حدا دفع مسر باودلر الى طلب المعونة الطبية ، وأخذ الطبيب يطرح أسئلة لا حصر لها ، ويقرع جبهة مسر باودلر بمطرقة خشبية صغيرة ، ويتحسس الأجزاء المتورمة من جسدها ، ثم أخذ عينة من دمها ، ولما منيت تلك الجهود بالفشل قال الطبيب فى النهاية :

« حسنا ، أخشى يا سيدتى العزيزة ، ألا يكون ثمة دواء لما تشكين منه سوى (edax rerum) (لفظ متحذلق يطلقه على الزمن) فعلينا أن نتطلع الى الزمن الشافى العظيم » •

فانبرت مسر باودلر تقول « ألا تفضلت ، أيها الطبيب العزيز بأن تدلنى على مكان هذا الدواء ؟ » •

فأجاب الطبيب : « من أى مكان » •

ومع أنها لم تكن تثق كثيرا بحكمته اذ لم تكشفه له ، على أية حال ، عن مصدر الدواء ، فقد مضت الى صيدلى الأسرة وسألته عما اذا كان بوسعه أن يعطيها الدواء (edax rerum) فتضرج وجهه خجلا وقال متلعثما « ليس هذا ، يا سيدتى ، ما يجعل أن تطلبه النساء المهذبات » •

فعادت أدراجها تستبد بها الحيرة والاضطراب •

وكانت اذا فشلت فى أمر دفعتها حالتها اليائسة لتجرب آخر ، ولما كان من مهام زوجها أن يطالع كتب من النوع الذى يرغب فى أن يطمس معالمه ، فقد أخذت تفحص قوائم الكتب المرصوفة فوق قمطره ، ووقع بصرها على اسم وعنوان من حسبت ، على أساس ما بعث الى مسر باودلر من مواد أنه يملك كتابا حول موضوع رهيب كاذب يشغل بالها • وبعد أن حجبت وجهها بنقاب كثيف ، خاطرت بالذهاب الى داره ، وقالت له فى جرأة :

« أريد ياسيدى ، كتابا يرشدنى حول التناسل العذرى » •

فأجاب وهو يراقب مفاتنها التى يخفيها نقابها : « ان التناسل العذرى يا سيدتى ، هو ما لن تتعلمى شيئاً عنه لو صحبتنى الى الطابق العلوى » .

فلاذت بالفرار هلعاً ملقاة .

ولم يبق أمامها سوى أمل واحد ، أمل يتطلب قراراً حاسماً وشجاعة لم تكن تؤمن بأنها من خصالها . تذكرت أن زوجها ، فى سبيل اتمام كتاب « شكسبير الأسرة » ، الذى يعد نعمة لكل أسرة محافظة محتشمة ، قد اضطر الى أن يقرأ ، وهى مهمة شاقة ولا شك ، الكتب غير المنقحة لذلك المؤلف المتحرر بصورة تدعو الى الأسف . كما كانت تعلم أنه يملك ، خلف الأبواب الموصدة لدولاب كتب معين ، كتاباً عن شكسبير كتب قبل باودلر ، حيث وضع تحت الفقرات التى ارتأت حكمته حذفها ، خطوطاً لتيسير مهمة عامل الطباعة . وطفقت تفكر ، « لامراء فى أننى سأعثر فى الفقرات الكثيرة المخططة التى حذفت ، على لفظ « التناسل العذرى » ، ولسوف يتضح معناها من سياق الكلام .

وذات يوم دعى زوجها لالقاء خطاب فى مؤتمر بائعى الكتب الأفاضل ، فتسللت الى مكتبه وعثرت على مفتاح دولاب الكتب الموصد بعد البحث فى قمطره ، وفتحت الأبواب المنشومة ، وتناولت كتاباً باليا بما يحوى من قصص مريعة ، وراحت تقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى ، فلم تعثر على الكلمة المنشودة ، بل عثرت على كثير مما لم تكن تبحث عنه ، ومضت تقرأ ، دون حساب للزمن ، وقد استبد بها الاحساس بالفزع رغم المتعة ، وبالثورة رغم الانهماك . وبينما هى مستغرقة اذ بالباب يفتح ، على حين غرة ، ويقف زوجها بالمدخل ويلهجة تنم عن الفزع والهلع صراح بها :

« يا الهى ، أى كتاب أراه بين أناملك يا ماريا ؟ ألا ترين السم يتقاطر من صفحاته ، وعدوى الأفكار الفاسدة تنتقل من كل حرف من حروفه الى عقل الأنثى غير المضمون ؟ وهل غاب عن بالك أن مهمتى فى الحياة هى صون الأبرياء من مثل هذا الدنس والفسق ؟ ياله من فشل ذريع منيت به فى عقر دارى ! » .

وهنا انفجر الرجل الطيب باكياً وانهمرت الدموع من عينيه
دموع الاحساس بخيبة الأمل والأسى والغضب البرىء ، وفجأة أحست

بخطيئتها ، فألقت بالكتاب جانبا وهرولت الى غرفتها وهى تنفجر فى نسيج
تتقطع له نياط القلب •

ولم يكن لما اعتراها من ندم فائدة • لقد قرأت أكثر مما ينبغى وإن
تنسى منه كلمة واحدة ، وراحت تلج على ذهنها كلمات مخزية ، وصور
مفرعة للملذات البشعة • وأخذت حالتها تتفاقم ساعة بعد الأخرى ويوما
بعد يوم حتى أصيبت بمس من الجنون اضطروا معه الى نقلها الى
مستشفى الأمراض العصبية ، وهى تردد فضائح شكسبير على الملأ •
وما أن خفتت كلماتها حتى جثا مستر باودلر على ركبتيه يسأل خالقه
عما اقترفه من ذنوب يستحق عليها مثل هذا العقاب • لكنه لم يتلق
جوابا ، على النقيض منك ومنى •

حلم المحلل النفسى

التكيف - الهروب

لقد كتب على الثوار أن يقيموا مذاهب جديدة ، والسبيل الى ذلك في ميدان التحليل النفسى هو ما يتضمنه ، بصورة مقنعة ، كتاب بعنوان : « علاج للثورة » للدكتور « روبرت لندنر » . ولا يسع المرء الا أن يفترض أن عددا كبيرا من المحللين النفسيين تنتابهم الهواجس الدفينة ، ولقد داهم أحدهم الكابوس المزعج التالى رغم ما تنسم به آراؤه فى ساعات يقظته من استقامة واعتدال :

كانت اللجنة السداسية تعقد اجتماعها السنوى فى قاعة نادى الروتارى بلمبو ، يطل عليها تمثال لشكسبير ، وكانت تضم : هاملت ، ولير وماكبث ، وعطيل ، وأنطونيو ، وروميو ، هؤلاء الأعضاء الذين قام الدكتور بومباستيكوس - طبيب ماكبث - بتحليلهم وهم بعد أحياء على وجه الدنيا . وكان ماكبث ، قبل أن يلقيه بومباستيكوس الحديث باللغة الانجليزية العادية ، قد تساءل بلغة التكلف التى كان يستخدمها آنذاك : « هلا استطعت علاج عقل مختل ؟ » . فأجاب الطبيب : « ياله من سؤال ! هذا ما لاشك فيه ، وما عليك الا أن تضطجع فوق أريكتى وتمضى فى الحديث ، وسوف أنصت اليك مقابل جنيته عن كل دقيقة » . وسرعان ما وافق ماكبث ، كما فعل الخمسة الآخرون فى فترات متباعدة .

وطفق ماكبث يسرد كيف راودته يوما أروهام القتل ، وأنه رأى فى حلم طويل كل ما يذكره شكسبير . والتقى ، لصن حظه ، بالطبيب فى الوقت المناسب ، فكشف له أنه انما يتصور دنكان أبا والليدى ماكبث أما ، واستطاع الطبيب ، بمشقة ، اقناعه بأن دنكان لم يكن ، فى حقيقة الأمر ، أباه ، ومن ثم أضحى من الرعايا المخلصين فلما مات مالكولم ودونالدين فى سن مبكرة ، خلفهما ماكبث فى الوقت المعين ، وظل مخلصا لليدى ماكبث ، وقضيا أيامهما يضطلعان بجليل الأعمال . فشجع ماكبث

الكشافة ، وفتحت هى الأسواق ، وعاش طويلا يحظى بتبجيل الجميع
ماخلا البواب .

وهنا نطق التمثال الذى كان يحمل حاكيا بداخله « ان ايامنا السالفة
كلها تضىء للحمقى الطريق الى الموت الزؤلم » .

وفزع ماكيت وقال : « لعنة الله على هذا التمثال ، لقد كتب عنى
ذلك الذى يدعى شكسبير اعنف الرويات هجوما وتشهيراً ، وهو لم يكن يعرفنى
الا عندما كنت فتى يافعا لم ألتق بعد بالدكتور بومباستيكوس ، وراح
يطلق لخياله العنان ليصور ما كان يأمل فيما ارتكبه من جرائم ولست
أرى مبررا لاصرار الناس على تكريمه وتبجيله ، مع أنك تكاد لا تعثر فى
مسرحياته على شخصية « ليست أوعى منى بالدكتور بومباستيكوس » .
واستدار نحو « لير » متسائلا : « ألا توافقنى ، أيها العجوز ؟ » .

كان لير رجلا طابعه الهدوء والسكينة ، لا يميل الى الشرثرة ، ورغم
تقدمه فى العمر كان يحسن تصفيف شعره ، وتنسيق هذامه ، ويبدو أن
النعاس كان يغالبه فى معظم الأحيان ، فما لبث سؤال ماكيت أن أيقظه .

فاجاب « لير » : « بلى ، اننى أسلم بذلك ، أعلم أنه قد استبد بى ،
ذات يوم ، شعور بالنفور من ابنتى العزيزتين : ريجان وجونريل ! وخيل
الى أنهما تضطهداننى ، كما توهمت أنهما قد أخذتا تحديان عادة أكل
لصوم الآباء . ولم أدبى حقيقة هذا الوهم الا بعد أن أباط الدكتور
بومباستيكوس عنه اللثام ، وانزعجت وبلغ منى الرعب أننى اندفعت ،
تحت جناح الظلام ، فى قلب العاصفة ، فابتللت وأصبحت بنزلة برد أدت
الى حمى ، وخيل الى أن المقعد فى بادئ الأمر « جونريل » ثم تحول الى
ريجان . ومما زاد حالتى سوءا مهرجى ، وكذلك رجل معقوه عارى البدن
دفعنى الى الايمان بالعودة الى الطبيعة ، وطفق يحدثنى عن أمور لا أهمية
لها مثل « بيليوك » و « الطفل رولاند » . وبرح بى المرض وبلغ ، لحسن
الحظ ، حدا اقتضى الاستعانة بالدكتور بومباستيكوس الذى سرعان
ما أقنعنى بأن ريجان وجونريل عطوفان كحسبى بهما دائما ، وأن ما استبد
بى من أوهام انما مرده الى الشعور بالأسف البالغ ازاء ما بدر من
كورديليا الجادة . ومنذ أن نلت الشفاء وأنا أنعم بحياة طابعها الهدوء
والاستقرار ، فلا أظهر الا فى المناسبات الرسمية مثل أعياد ميلاد ابنتى
حين أطلت من إحدى الشرفات فيهتف الجمهور مرددا : « تحيات ثلاث

للملك العجوز ! » • لقد كانت الهتافات تستميلنى ، لكن يسعدنى القول بأن هذا الاحساس قد تجدد وتلاشى •

وهنا انطلق التمثال يقول : « انك ، أيها الرعد العاصف ، تصعق كروية الأرض السميكة فتحيلها أرضا منبسطة » •

وتساءل ماكبث : « وهل تحس الآن بسعادة ؟ » •

فقال لير : « آه أجل ، اننى سعيد بقدر ما طال النهار ، فأنا أجلس فى مقعدى متظاهرا بالصبر ، أو تأخذنى سنة من النوم دون التفكير فى شىء » •

التمثال : « بعد نوبات حمى الحياة يروح فى سبات عميق » •

فقال لير : « يا له من قول أخرق ! ، ان الحياة ليست نوبات من الحمى ، كما أننى أنعم بنوم هادئ رغم أننى لا أزال على قيد الحياة ، وهذا القول ضرب من التفاهة التى كانت تتملكنى قبل أن أعرف الدكتور بومباستيكوس » •

وأطلق التمثال لنفسه العنان ليدلى بملاحظة أخرى فقال : « عندما نولد ، فصرخ لأننا جئنا الى هذا المسرح الكبير الذى يضم الأغبياء » • وصاح لير ، وقد فقد لحظة مابدا عليه من قبل من اتزان وكبح جماح النفس : « مسرح الأغبياء ! ليت التمثال يتعلم كيف يفوه بما يعقل ، أيجرؤ على اعتبارنا أغبياء ؟ نحن الذين نعتبر أكثر مواطنى « لمبو » احتراماً وتبجيلاً • لعل الدكتور بومباستيكوس يستطيع علاج التمثال ! فما رأيك يا عطيل ؟ » •

فقال عطيل : « حسنا ، لقد عاملنى ذلك الوغد شكسبير أسوأ مما فعل بك وبماكبث ، فاننى لم ألتق به سوى بضعة أيام كنت أجتاز خلالها أزمة فى حياتى • لقد أخطأت بزواجى من فتاة بيضاء اذ سرعان ما استبان لى استحالة حبها الخالص لرجل ملون • وحين عرفنى شكسبير كانت ، فى الحقيقة ، تنسج خيوط مؤامرة لتلوث بالفرار مع مساعدى كاسيو • فملأت الغبطة نفسى ، اذ كانت كابوسا جاثما فوق صدرى • بيد أن شكسبير توهم أن الغيرة قد استبدت بى ، ولما كنت متيما آنذاك بالبلاغة ، رحلت ألقى خطبا تنم عن الغيرة ارضاء له • وكشف لى الدكتور بومباستيكوس الذى التقيت به وقتئذ ، أن أساس المشكلة برمتها هو مركب النقص الذى نشأ عن كونى أسود البشرة ، وكنت أحسب دائما فى حياتى

الواعية أنه شيء رائع أن أكون أسود اللون .. أكون أسود ومع ذلك مرموق المكانة . فما لبث الدكتور بومباستيكيوس أن أزاح النقاب عن مشاعر أخرى تكمن في اللاوعي ، مشاعر تثير ثورة لا تهدأ الا بالقتال ، وبعد شفائي منها عزفت عن الحرب ، وتزوجت من امرأة سوداء ، وصارت لى أسرة كبيرة ، وكرست حياتى للتجارة . ولم أعد أشعر بميل الى « التفاخر » أو التفوه بذلك الضرب من الهراء الذى كان يثير فى نفوس المواطنين العقلاء دهشة واستغرابا » .

وهتف التمثال : «كبرياء وعظمة وواقعة حرب مجيدة » .

فقال عطيل : « أنصت اليه ، لعل هذا عين ما كنت سأردده لو لم ألتق بالدكتور بومباستيكيوس ، بيد أننى لا أؤمن اليوم بالعنف ، وأرى أن الدماء الناجح أجدى منه بكثير » .

فتمتم التمثال : « لقد أمسكت بعنق الكلب المختون » .

وفجأة أنبعت بريق من عيني عطيل وصاح قائلاً : « لعنة الله على هذا التمثال ! سوف أقبض على عنقه ما لم يأخذ حذره » .

وتساءل أنطونيو الذى لم ينبس ببنت شفة : « وهل تحب زوجك السوداء بقدر ما كنت تحب ديمونة ؟ » .

فتأوه عطيل قائلاً : « حسنا ، انها مسألة أخرى كما تعلم ، فهى علاقة أكثر نضوجا وأشد ارتباطا بواجباتى العامة ، فلا يشوبها تطرف وعنف لا ميرر لهما ، ولا تغرينى على أن آتى أعمالا يأسف لها أى عضو مخلص من أعضاء الروتارى » .

فاستطرد التمثال : « لو أصابتها المنية اليوم لكانت أشد سعادة » .

وقال عطيل : « أصغ الى ما يقول ، هذه عين الملاحظة التى أبرأني منها بروفيسير بومباستيكيوس ، وبفضله ، من لا أقوى على أن أقدم له ما يجب من الشكر والامتنان ، لم أعد الآن أحس بتلك المشاعر المتطرفة . فزوجى سيدة طيبة القلب . فهى تعد لى طعاما شهيا ، وترعى أبنائى ، وتدفع خفى . ولست أرى مزيدا يبتغيه رجل عاقل من زوجة » .

وتمتم التمثال : « أطفئ النار ، ثم أطفئ النار » .

واستدار عطيل نحوه ، وقال : « لن أنبس ببنت شفة ما دمت تقاطعنى ،
ولكن لنسمع قصتك يا أنطونيو » •

قال أنطونيو : « حسنا ، لا يخفى على جميعكم ما ذكره عنى شكسبير
من أكاذيب مجحفة • حدث يوما - ولا يفوتنى القول ان ذلك اليوم ليس
ببعيد - أننى تصورت كليوباترا أما ليس الفسق معها حراما ، كما كان
قيصر على الدوام بمثابة أب لى ، وكان من الطبيعى أن أنظر إليها كأم
فى ضوء علاقتها بقيصر لكن شكسبير زعم ، ونجح فى هذا الزعم على نحو
ضلل المؤرخين الجادين أنفسهم ، بأن اغتتنانى بها كان متávلا فى أعماق
نفسى وقادنى الى الدمار • لم تكن هذه هى الحقيقة طبعاً ، وكشف لى
الدكتور بومباستيكوس الذى التقيت به ابان معركة أكتيوم ، ما كان يعمل
فى عقلى اللشعورى ، وسرعان ما تبينت بفضل قوة تأثيره ، أن كليوباترا
لم تكن تتحلّى بما خلعتة عليها من مفاتن ، وأن حبى لها لم يكن سوى
نزوة عاطفية • وبفضله استطعت أن أتصرف بحكمة فوضعت حدا للنزاع
القائم بينى وبين أوكتافيوس وعدت الى شقيقته ، زوجى الشرعية على
أية حال • ومن ثم نعمت بحياة مبهجة وأصبحت أهلاً لعضوية هذه اللجنه ،
وحين اضطررنى واجبى الى قتل كليوباترا أسست بالندم ، بيد أنه لم يكن
هنالك اجراء آخر يدعم الصلح بينى وبين أوكتافيا وشقيقها • لقد كان
أداء هذا الواجب بغىضاً على النفس بلا مراء ، لكن ما من مواطن
مخلص يعزف عن أداء كل هذه الواجبات حين يقتضيها الصالح العام » •

وتساءل عطيل : « هل كنت تحب أوكتافيا ؟ » •

فأجاب أنطونيو : « آه ، حسنا لست أعرف على وجه الدقة ما ينبغى
أن يسمى حبا • انى أشعر نحوها بالاحساس الذى يجب أن يشعر به نحو
زوجه كل مواطن وقور مبدل • لقد كنت أكن لها التقدير ، ورأيت أنها
رفيقة كفاح وأهل للثقة • وتسنى لى بمشورتها أن أعيش طبقاً لوصايا
الدكتور بومباستيكوس وتوجيهاته • أما الحب العاطفى ، كما كنت أخاله
قبل أن التقى بذلك الرجل الشهير ، فقد أنحيته جانبا وحظيت ، بدلا منه
باعجاب رجال الأخلاق » •

وصاح التمثال : « من بين آلاف القبلات العديدة أطبع على شفتيك
القبلة الأخيرة الفاترة » •

وما أن تناهت هذه الكلمات الى سمع أنطونيو حتى ارتعد من أم
رأسه الى أخمص قدمه ، وأخذت عيناه تذرفان الدموع ، وبمشقة تماثل
نفسه وقال : « كلا ، لقد قطعت صلتي بهذا كله » •

فأردف التمثال : « لقد ولى اليوم المشرق ، وها نحن نواجه اليوم المظلم ! » •

قال أنطونيو : « ان هذا التمثال لفاجر حقا ٠٠ أبحسب أن من اللائق التحدث عن « اليوم المشرق » وهو يعنى الارتواء بين أحضان عاهر ؟ لست أرى سببا يحمل أعضاء الروتارى على احتماله والصبر عليه ، لكن ما رأيك يا روميو ؟ لقد انغمست بدورك فى نزوة الحب على حد ما ذكره المستهجن العجوز » •

فأجاب روميو : « حسنا ، أعتقد أنه كان أبعد عن جادة الصواب مما كان عليه بالنسبة لك ، اننى أذكر قصة حب مرافقة مع فتاة لست على يقين من اسمها • ولعله كان أقرب الى جميعنا - أو جوانا - آه ، كلا ، لقد تذكرته ، انه جوليت ! » •

وقاطعه التمثال قائلا : « يلوح أنها تتدلى فوق وجنة الليل كللولة شمينة فى أذن حبشى » •

واستطرد روميو : « كنا جد صغيرين أحمقين ، وقد لقيت جوليت حتفها فى ظروف محزنة » •

وعاد التمثال يقاطعه : « ان جمالها يحيل هذا القبر قاعة ولائم تشع ضوءا » •

ومضى روميو يقول : « لقد أبرأنى الدكتور بومباستيكوس الذى كان يعمل وقتئذ صيدليا ، من اليأس الأخرق الذى تملك نفسى فترة وجيزة • وكشف لى أن الدافع الحقيقى الذى كان يحركنى انما هو ثورة على الأب حملتنى على الزعم بأنه أمر بالغ الشاؤ أن أقع فى غرام فتاة من أسرة كابوليت ، وراح يشرح كيف أن الثورة على الأب ظلت مصدرا للسلوك غير السوى عبر الأجيال ، كما ذكرنى بأن المراهق الذى هو ابن اليوم سوف يصير حسب قانون الطبيعة أبا فى الغد ، وأبرأنى من الكراهية اللاشعورية التى كنت أحملها لأبى ، وساعدته على أن أصبح جديرا بأسرة مونتاجير وشرقها • وفى الوقت المعين تزوجت من ابنة شقيق الأمير ، وحظيت باحترام الجميع وكففت عن التعبير عن تلك المشاعر المتطرفة التى لا تؤدى الا الى الدمار ، كما أوضح شكسبير » •

قال التمثال : « ان سمك لسريع المفعول ، وهكذا أموت وأنا أطبع قبلة على شفئك » •

واستطرد روميو : « حسنا ، هذا يكفينى ، فلنسمع قصتك
يا هاملت » .

واستهل هاملت حديثه قائلا : « كنت أسعد حظا فى لقائى بالدكتور
بومباستيكوس ، فلا مرأى فى أن حالتى كانت جد سيئة . فقد كنت مخلصا
لأمى ، وتوهمت أن هذا هو حالى مع أبى . فما كان من الدكتور
بومباستيكوس الا أن أقنعنى بعدئذ بأنى كنت أبغضه كل البغض لغيرتى
منه . وحين تزوجت أمى من عمى تمثلت الكراهية اللاشعورية لأبى فى
كراهية شعورية لعمى ، وبلغ تأثير هذا الشعور على نفسى حدا انتابنى
معه الهذيان والذيلات العصبية ، وحسبت أننى شاهدت أبى ، وتوهمت
أنه يخبرنى أن أخاه هو الذى أوداه قتيلا ، ورأيت من واجبى قتل عمى ،
وخلته يوما مختبئا خلف إحدى الستائر ، فوجهت طعنة الى ما تصورت
أنه عمى . ولم يكن الذى حسبته فى جنونى رئيسا للوزراء ، سوى فار ،
وحمل هذا التصرف كل امرئ على الاعتقاد بأن جنونى خطير ، فاستدعى
الدكتور بومباستيكوس لعلاجى . فأدى لى خدمة جلية ، إذ جعلنى أتنبه
لعواطفى المحرمة نحو أمى ، وكراهيتى اللاشعورية لأبى وتحول هذا
الشعور الى عمى . . كان يتملكنى احساس سخيف جدا بالاعتداد بالذات
ويتراءى لى أن الزمن قد فقد ترابطه ، وأننى خلقت لاصلاحه . فأقنعنى
الدكتور بومباستيكوس بأننى أصغر من أن ألم بفنون الحكم . وأدرجت
خطأى فى معارضة النظام القائم الذى يدين له بالولاء كل من هو سوى .
وأبدت أسفى لأمى عما بدر منى من كلمات نابية ، واقمت علاقات طيبة
مع عمى ، وان يكن من واجبى الاعتراف بأنى كنت لا أزال أراه انسانا
يبعث على الملل وتزوجت من أوفليا الزوجة المطيعة المستسلمة ، كما
أمسكت بأعنة الحكم فى الوقت المعين ، وتسنى لى فى المنازعات التى وقعت
مع بولندا أن أصون شرف بلادى بخوض معارك كللت بالظفر ، ثم قضيت
نحبى أحظى باحترام الجميع وتبجيلهم ، ولم ينل عمى نفسه تكريما قوميا
يفوق ما نعمت به » .

قال التمثال : « ليس ثمة ما هو خير أو شر ، وانما التفكير هو
الذى يحدد ذلك » .

قال هاملت : « اصغ الى الصبى العجوز الذى ما انفك يردد الهواء
عينه . أليس واضحا أن ما قمت به كان خيرا ؟ وأن ما زعم شكسبير أننى
ارتكبته ، كان شرا » .

وتسأل ماكبث : « ألم يكن لك صديق فى مثل سنك يشجعك على حماقاتك ؟ » •

فأجاب هاملت : « آه ، أجل ، لقد كان ثمة شاب ، على حد قولك ، لكن ما اسمه ؟ أكان يدعى نلسون ، كلا ، لا أظن أن ذلك الاسم صحيح ، آه لقد تذكرت • كان اسمه هوريشيو • أجل ، كان له ، ولا شك ، تأثير سيىء على نفسى » •

فقال له التمثال : « نعمت مساء أيها الأمير اللطيف ، ولتنتشدد أسراب الملائكة ما يبعث الارتياح الى نفسك » •

فقال هاملت : « آه أجل هذا رائع للغاية ، إنها عين الملاحظة غير الدقيقة التى كانت تستهوى شكسبير ، أبرأئى الدكتور بومباستيكوس حتى تخلت عن هوريشيو وصادقت روزنكرانتز وجيلدنسـترن اللذين كانا سويين ، كما ذكر بومباستيكوس » •

وتمتم التمثال : « بمن أثق به ثقتى بثعابين ذات أنياب » •

وتسأل أنطونيو : وما رأيك فى هذا كله وأنت الآن فى عداد الموتى ؟ » •

فأجاب هاملت : « آه ، حسنا لا أنكر أن ثمة أوقاتا أشعر فيها بضرب من الندم على الحماس القديم ، والكلمات البراقة التى كانت تنساب من بين شفتى ، والبصيرة الثاقبة التى كانت لنفسى مصدر عذاب وبهجة فى آن واحد • وتجول بخاطرى الآن مقطوعة بليغة رائعة من إبداعى مطلعها : « يا للانسان من عمل رائع ! » لست أنكر أن هذا الانسان يحظى بنوع من التقدير فى عالمه المجنون ، لكنى أثرت الحياة فى العالم العاقل ، عالم الرجال الجادين الذين يؤدون الواجبات المألوفة بدون شك وبلا تساؤل ، الذين لا تمتد أبصارهم أسفل السطح خشية ما قد يرونه • والذين يكرمون آباءهم وأمهاتهم ويرتكبون الجرائم التى ساعدت على نجاح آبائهم وأمهاتهم وازدهارهم ، والذين يناصرون الدولة دون تساؤل عما إذا كانت جديرة بمناصرتهم ، والذين لا يشتركون فى الكذوبة ما لم تخدم مصالح الأقوياء ، لقد أمنت بهذه العقيدة متبعا تعاليم الدكتور بومباستيكوس • وبهذه العقيدة عشت ، ووفق تعاليمها قضيت نحبى » :

وعاد التمثال يقول : « ونحن فى سبات الموت ، لا بد للأحلام التى تراودنا بعد أن ننفض عنا غلاف الفناء وأن تبعث الراحة فى نفوسنا » •

فقال هاملت : « هراء أيها العجوز الثابت على العهد ، فأنا لا أرى أحلاماً قط ، وأنا أستمتع بالعالم كما أراه ، وهذا ما أتمناه ، فما الذى يوجد فى الدنيا ويتعذر على المدعين أمثالى تحقيقه ؟ » •

فأجاب التمثال : « لعل المرء يبتسم ، وابتسم ، وهو وغد » •

فاستطرد هاملت : « حسنا ، اننى أؤثر أن أبتسم وأكون وغدا على أن أبكى وأكون انسانا خيرا » •

قال التمثال : « رغم أننى أؤمن ، يا سيدى ، بكل ذلك حق الايمان ، الا أننى أعتقد أنه ليس من الأمانة فى شىء أن تقرر هذه الحقيقة على هذا النحو » •

فقال هاملت : « أجل ، وما قيمة العدالة فى نظرى ، اذا كان للظلم فائدة لنفسى » •

ومضى التمثال يقول : « ومن ذا الذى يتحمل سياط الزمن وسخرياته ؟ » •

فصاح به هاملت : « آه ، لا تعذبنى ! » •

وأردف التمثال : « لن تبرح هذا المكان قبل أن أضع أمامك مرآة عليها تكشف لك أعماق جزء فيك » •

فصاح هاملت قائلاً : يالى من محتال خداع ، وعبد سازج ، الى الجحيم مع الدكتور بومباستيكوس ! الى الجحيم مع التكيف ! الى الجحيم مع الحكمة وكيل الثناء للأغبياء ! • وما أن نطق بهذه الكلمات حتى سقط مغشياً عليه •

وقال التمثال : « الباقى سكون .. » •

وهنا تناهت الى الآذان صرخة غريبة ، دوت من الأعماق منبعثة من أنبوبة لم يسبق لأعضاء الروتارى أن لاحظوها ، وانطلق صوت معذب يقول فى أنين : « أنا الدكتور بومباستيكوس • اننى فى الجحيم ! اننى أعترف وأتوب ! لقد قتلت نفوسكم ، لكن بصيص الأمل الذى مازال يراود هاملت هو الذى أداننى • اننى أعيش فى الجحيم ، لكننى لم أعرف بعد الجريمة التى أودت بى الى هذا المكان اننى أعيش فى الجحيم لأنى آثرت الذل على المجد ، وفضلت الخنوع على العظمة والأبهة ، وطلبت السكينة والهدوء بدلا من وميض البرق ، ولأنى كنت أُرهب الرعد بقدر ما أفضل الرذاذ

الربط الذي لا ينقطع • لقد حملتني نوبة هاملت على أن أعرف خطيئتي •
وفي الجحيم حيث أعيش تستبد بي عقد لا نهاية لها • وعبثا أدعو القديس
« فرويد » وأتوسل إليه ، ولازلت أسير دوامة الجنون التي لا حد لها •
فيا من كنتم ضحيتي تشفعوا لى ، أرفع ما جلبته عليكم من شر » •

ولم ينصت اليه بقية الأعضاء الخمسة ، وانما استداروا في سورة
غضب نحو التمثال الذي جلب اليأس الى صديقهم هاملت ، وراحوا
يوجهون اليه اللكمات العنيفة • فأخذ التمثال ينهار رويدا رويدا ، واذ
لم يبق منه سوى الرأس تمتم قائلا : يا الهى ! يا لهؤلاء البشر من
حمقى ! » •

وظل الأعضاء الخمسة في «ليمبو» • وبقي الدكتور «بومباستيكوس»
في الجحيم ، أما هاملت فقد حملته الملائكة ورسل النعمة الى السماء •

(*) اختيرت أوفيليا لتخلف هاملت في عضوية اللجنة •

حلم الميتافيزيقى

RETRO ME SATANAS

تبين لى أن صديقى المسكين « أندريه بوميلوفسكى » ، أستاذ الفلسفة السابق بأحدى جامعات وسط أوروبا التى اندثرت اليوم ، يعانى ضربا من الجنون لا ضرر منه ، بينما أئسمت أنا بمنطق قوى ، ولا أرى أن يتخذ العقل مرشدا فى الحياة بل وسيلة تساعدها فى مبارياتنا الجدلية المسلية ، وتزودنا بأساليب لمضايقة خصومنا الذين هم دوننا نكاء وسرعة بديهية ، ولم يكن بوميلوفسكى يشاركنى هذا الرأى فأطلق العنان لعقله يقوده كيفما شاء ، مما أسفر عن نتائج تدعو الى الدهشة والعجب . . كان من النادر أن يجادل أو يحاور فظلت أسس آرائه وعبادته غامضة فى نظر السواد الأعظم من خلانه . ولم يكن أحد يعرفه الا بعزوفه الدائب عن استخدام لفظ « لا » ومرادفاته ، فلم يكن يقول « هذه البيضة ليست طازجة » بل « أن تغييرات كيميائية قد طرأت على هذه البيضة منذ وضعها » ولا يقول « لا أستطيع أن أعثر على هذا الكتاب » بل « أن الكتب التى عثرت عليها غير التى أريدها ولا يقول « لا تقتل » بل « تمسك بالحياة » . ومن ثم لم تكن حياته عملية بيد أن البراءة كانت طابعها المميز ، ولذا أحسست نحوه بحب عارم . ذلك الحب هو الذى فتح فاه ، ولا ريب ، وحمله على أن يروى لى التجربة الرائعة التالية التى أنقلها بحذافيرها كما جاءت على لسانه :

انتابتنى ذات يوم حمى بالغة الخطورة كادت تودى بحياتى ، دهمتني أثناءها ولفترة طويلة نوبة من الهذيان المستمر ، وحلمت أنني فى الجحيم ، وأن الجحيم غاص بأحداث غير محتملة الوقوع ولكنها ليست مستحيلة ، مما أسفر عن نتائج أثارت الدهشة والعجب . فلقد توهم بعض من حلت عليهم اللعنة ، لدى بلوغهم قاع الجحيم أن يوسعهم التقلب على الأبدية بلعب الورق ، لكن سرعان ما تبينوا أن ذلك أمر عسير ، لأنهم كلما خلطوا الورق ظهر منتظما تماما مبتدئا من الأس ومنتهيا بملك القلوب « الشايب » .

وبالجحيم قسم يضم دارسى نظرية الاحتمالات ويحتوى على عدد كبير من الآلات الكاتبة والقردة التى كلما سار أحدها فوق إحدى هذه الآلات انطبعت إحدى قصائد شكسبير الغزلية . وثمة مكان آخر لتعذيب علماء الطبيعة به مراجل وذيران ، لكن ما أن توضع المراحل فوق اللهب حتى يتجمد ما بها من ماء . وهناك حجرات خانقة للأنفاس عزف علماء الطبيعة ، بحكم خبرتهم ، عن فتح أية نافذة فيها ، إذ لو حدث ذلك لاندفع كل ما بها من هواء الى الخارج وأضحت الحجرات مفرغة من الهواء ، هذا الى جانب مكان للخبراء فى ألوان الطعام والشراب ، حيث كان يسمح لهم بأشهى الأغذية وأمهر الطهارة . لكن ما أن تقدم لهم شرائح اللحم المقدد ويقضمون منها ملاء أشداقهم حتى يتبينوا أن مذاقها كبيض فاسدة ولو أرادوا أكل بيض لكان بدوره أشبه ما يكون بقطعة من البطاطس أصابها العطب .

أما العذاب المبرح فكان من نصيب غرفة لا يقطنها سوى الفلاسفة الذين عارضوا فلسفة « هيوم » وفندوها ، أولئك الفلاسفة الذين لم يتعلموا الحكمة رغم وجودهم فى الجحيم ، وما انفك يسيطر عليهم ميلهم الفطرى الى الاستقراء ، لكن كلما قاموا باستقراء ثبت بطلانه فى اللحظة التالية ، وهذا لا يحدث الا فى السنوات المائة الأولى من عذابهم يتعلمون بعدها احتمال تكذيب أى استقراء ، ومن ثم لا يفند الاستقراء الا بعد أن يغير هذا الاحتمال قرن آخر من العذاب المنطقى ، وهكذا تستمر المفاجآت طيلة الابد رغم كونها فى كل مرة على مستوى من المنطق يفوق سابقتها .

وهناك جحيم الخطباء الذين دأبوا ، وهم على قيد الحياة ، على استخدام بلاغتهم فى التأثير على الجماهير الغفيرة . ومع أن هذه البلاغة لم تفقد قوتها ولم تنفض الجماهير الغفيرة من حولهم ، فان رياحا غريبة كانت تعبث بالأصوات فلم يتناه الى سمع الجماهير غير عبارات مبتذلة جوفاء مغايرة لما يفوه بها الخطباء .

ويحتل الشيطان مكانة فى قلب مملكة الجحيم ، ولا يسمح للمثول فى حضرته الا للبارزين من الملعونين . وعند الاقتراب من الشيطان تبرز الأمور البعيدة الاحتمال وتزداد شيئا فشيئا فالشيطان نفسه هو الاستحالة التامة التى يتصورها أى عقل ، فهو العدم المجرد ، اللاوجود التام ، مع أنه يتغير باستمرار .

وبفضل مالى من شهرة فلسفية تقدمت صفوف من التقوا « بأمر الظلام » لقد قرأت عن الشيطان أنه روح السلبية ، لكن ما أن دلفت الى

حضرته حتى أدركت في فزع أن للشيطان جسما سلبيا وله عقل سلبي على حد سواء . أما جسم الشيطان فهو في الواقع ، فراغ مجرد تام خال لا من ذرات المادة فحسب بل من ذرات الضوء أيضا . وما يبقى على فراغه هي ذرة الاستحالة . فكلما دنت ذرة من سطحه الخارجي ، اصطدمت بالصدفة بذرة أخرى تحول دون تغلغلها في منطقة الفراغ . وبما أن الضوء لا ينفذ الى هذه المنطقة أبدا فانها حالكة السواد ، وهي في سوادها لا تقارن بالأشياء التي نخلع عليها هذا اللفظ دون تدقيق ، اذ هي سواد مطلق تام لا نهائي ، فهي ذات شكل ، والشكل الذي اعتدنا أن ننسبه الى الشيطان عبارة عن قرون وأظلاف وذيل وما شابه ذلك ، أما بقية الجحيم فيحفر بها لهيب معتم حيث يقف الشيطان في أبهة رهيبة . ولا يثبت الشيطان في مكانه ، فالفراغ الذي يتكون منه دائب الحركة ، وان ضايقه أمر من الأمور نشر الرعب من ذنب مطوى أشبه ما يكون بقطة هائجة . وينطلق في بعض الأحيان ليغزو مناطق جديدة ، وقبل أن ينطلق يسربل نفسه بعدة حربية بيضاء براقه تخفي تماما ما بداخلها من عدم ، ولا تظلم مكشوفة سوى عينيه تنطلق منهما أشعة العدم الثاقبة باحثة عن فريسة جديدة . وأينما وقعت عيناه على السلبية ، وجدت التحريم ، وحيثما اكتشفت مذهب اللاعمل ، تغلغلت في كيان أولئك الذين هم على استعداد لقبول الشيطان . وكل سلبيه انما تنبثق منه ثم تعود بحصيلة من خيبة الآمال المسلوبة فتصبح هذه الخيبة جزءا منه تزيد من حجمه على نحو يهدد معه بأن يملأ الفراغ بأسره وكل اخلاقي تتكون أخلاقياته من «الأمر والنهي» وكل جبان « يغلب التردد على العزم » ، وكل طاغية يجبر رعاياه على أن يعيشوا في هلع ، كل هؤلاء يصبحون بعد مدة من الزمن جزءا من الشيطان .

وتحيط به جماعة من الفلاسفة المتزلفين الذين استعاضوا عن مذهب الوهية الشيطان بمذهب وحدة الوجود ، ويعتقد هؤلاء أن الوجود ظاهري فحسب ، أما اللاوجود فهو الحقيقة الخالصة الوحيدة ، ويحدوهم الأمل في أنهم سيخلفون على اللاوجود مظهرا محددا في الوقت المناسب ، اذ في تلك اللحظة سوف نجد أن ما نعتقده وجودا في الوقت المراهن لا يزيد في حقيقته عن كونه جزءا منفصلا عن الجوهر الشيطاني . ورغم ما أظهره علماء الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) هؤلاء من حذق ومهارة بالغين ، الا أنني لم أسلم بوجهة نظرهم . فقد اعتدت ، وأنا على الأرض ، أن أناهض كل سلطة طاغية مستبدة ، ولازمتني هذه العادة في الجحيم ، ومن ثم رحت أحاور المتحذلقين في الميتافيزيقا وأجادلهم .

واعترضت قائلاً : « أن ما تبدوونه يتسم بالسخف ، فأنتم تعلنون أن اللاوجود هو الحقيقة الوحيدة وتزعمون أن هذه الحفرة السوداء التي تبدوونها موجودة ، وتحاولون اقناعي بأن اللاوجود موجود ، لكن في هذا تناقضا ، ومهما اشتد لهب الجحيم فأننى لن أحط من قدر تفكيرى المنطقى الى الحد الذى أقبل معه هذا التناقض » .

وهنا أمسك رئيس المتحلقين بخيط الجدل وراح يقول : « أنك تمر يا صديقى على الحقائق مر الكرام ، أنت تنكر أن اللاوجود موجود ؟ لكن ما هذا الذى تنكر وجوده ؟ فان كان اللاوجود عدما فان أى رأى يتعلق به هراء . وهذا ما ينطبق على قولك انه غير موجود . أخشى أنك لا تبدى اهتماما كبيرا بالتحليل المنطقى للعبارات الذى كان ينبغى أن تتلقنه وأنت فتى يافع ، الا تعلم أن لكل جملة مضمونا ، فان كان المضمون عدما باتت الجملة هراء ؟ وهكذا حين تزعم ، بحماس بالغ ، أن الشيطان - اللاوجود - غير موجود ، فانك ببراءة تناقض نفسك » .

فأجبت : « لا مرأى فى أنك فى هذا المكان منذ زمن ، وأنتك مازلت تتمسك بنظريات قديمة . من الثثرة أن تقول أن للعبارات مضمونا ، بيد أن هذا اللون من الحديث قد عفى عليه الزمن وحينما أقول ان الشيطان، الذى لا وجود له ، غير موجود فأنى لا أذكر الشيطان ولا اللاوجود بل اللفظ « شيطان » واللفظ « لا وجود » فحسب ، لقد كشفت لى مغالطاتكم حقيقة كبرى ، وهى أن اللفظ « لا » لا داعى له ، ومن ثم فلن استخدم هذا اللفظ » .

وعندئذ انفجر علماء الميتافيزيقا المجتمعون ضاحكين ، وحين هدأت موجة الضحك قالوا : « أصغوا كيف يناقض هذا الانسان نفسه وأنصتوا الى وصيته العظمى بتجنب النفى ، والى تأكيديه بأنه لن يستخدم كلمة « لا » .»

وبرغم الاساءة التى وجهت الى ، كبحت جماح نفسى ، ولما كنت أحمل فى جيبى قاموسا رحت أحذف منه كل ما يعنى النفى ، وقلت : « لن يكون حديثى الا بالكلمات الباقية ، التى بها سوف أتمكن من وصف كل شىء فى الكون ، وستكون أوصافى متعددة ، غير أنها ستكون عن أشياء أخرى غير الشيطان ، لقد ساد الشيطان طويلا هذا العالم الجهنمى . وكان درعه اللؤساء يبعث الرعب فى النفوس ولكن لم يكن تحت هذا الدرع سوى عادة لغوية زئيمة وتجنب اللفظ « لا » يضع نهاية لامبراطوريته .

ولما احتدم الجدل ، لوح الشيطان بذنبه فى هياج متزايد ، فانبعثت من عينيه الغائرتين أشعة الظلام المرعبة ، لكن ما أن فضحت أمره ووصفته بأنه عادة لغوية سيئة حتى حدث انفجار مروع واندفع الهواء من كل حدب وصوب ، واختفى الشكل المرعب • وانجلى هواء الجحيم المعتم بسبب أشعة العدم الكثيفة كما لو كان يفعل السحر • وتبين أن ملاح كأنهم قرودة الى جانب الآلات الكاتبة ليسوا سوى نقاد فى ميدان الأدب وراحت المراحل تغلى وورق اللعب يختلط ، كما أخذ الهواء العليل يهب من النوافذ وعاد لشرائح اللحم مذاقها الطبيعى • وفى غمرة الاحساس بالحرية الرائعة استيقظت من نومى ، ورأيت أن حلمى – وان كان يرتدى قناع الهذيان – الا أنه ينطوى على حكمة بالغة • ومن تلك اللحظة خفت وطأة الحمى • أما الهذيان ، كما قد يبدو لك ، فقد ظل مستمرا •

حلم الوجودی

انتصار الوجود

ملأت شهرة « بورفيراجلانتين » الشاعر الفيلسوف العظيم ، الآفاق
بمؤلفاته العميقة الرائعة المتعددة ولاسيما بقصيدته الخالدة
« أنشودة العدم » .

في البيداء المترامية
حيث تمتد الرمال الى ما لا نهاية
أبيات

أبحث عن الطريق المفقود
الطريق الذي لا أهدى اليه
وتحوم روحى هنا وهناك
فى كل اتجاه وفي
تتلمس فلا تصادف شيئا
وسط هذا الفضاء العريض
هذا الفضاء اللانهائى
هذه الرمال ..
هذه الرمال المتوهجة المزهوة للأنفاس
هذه الرمال الآسنة الملة
التي تمتد فى غير ماحد
الى الأفق البعيد ..

ويترامى الى أخيرا

صوت

صوت مدو عذب معا

يهتف

انتظن أنك روح ضائعة

تحسب أنك روح ..

لكنك واهم - فلست بروح

لا ولا أنت ضائع

فأنت عدم

ولا وجود لك .

رغم ذبوع هذه القصيدة وانتشارها فان نفرا قليلا يعرف الظروف
التي حملت على نظمها وما أسفرت عنه من أحداث .

وأرى لزاما على أن أسرد هذه الظروف وتلك الأحداث رغم ما تنطوى
عليه من ألم وضنى .

كان « بورفير » ، منذ فجر شبابه مرهف الاحساس ويعانى من ألم
ممض ، فلقد استبد به الخوف من أنه قد لا يكون موجودا ، وكان كلما
تطلع الى المرأة ساورته الشكوك فى ألا تظهر صورته ، فابتدع لنفسه
فلسفة من شأنها ، كما كان يأمل ، أن تذهب بهذا الخوف وتبدد تلك
الشكوك ، لكن هذه الفلسفة كانت تخفق ، من حين لآخر فى أن تشفى
غليله ، واستطاع ، بوجه عام ، أن يوارى شكوكه ، لكن أنشودة العدم
التي تعبر عن رؤيا مفاجئة محطمة ، تكشف عن أن النجاح لم يحالفه .
فعقد العزم على أن يثبت وجوده بأى ثمن وبصورة قاطعة تخمد الصوت
الذى يعذبه .

وبدوام تأمل النفس والملاحظة الدقيقة اقتنع فى النهاية بأن ما من
شئ حقيقى كالألم ، وأن بالألم وحده يتحقق الوجود . فراح ينشُد
الألم فى ربوع الأرض قاطبة بالقيام برحلة الحزن والأسى ، حتى لقد
قضى شتاء فى القطب الجنوبي منعزلا وحيدا حيث كان الليل لا ينتهى
يوحى بأحلام مزعجة عما يحمله المستقبل من كآبة وغم .

وعرض نفسه لألوان العذاب فى ألمانيا زاعما أنه يهودى ، لكن فى عين اللحظة التى بلغ فيها عذابه حدا لا يحتمل ، اقتحم « غراب يو^(١) » معسكر التعذيب وحطم الصمت الرهيب معلنا بصوت حزين : « انك لا تتألم ، انك عدم ، ولا وجود لك » .

ورحل الى روسيا حيث ادعى أنه جاسوس يعمل لحساب الحكومة البريطانية ، فقضى شتاء طويلا يقطع الأشجار بجوار البحر الأبيض . وكان الجوع والتعب والبرد تنفذ الى أعماقه يوما فيوما ، وتراءى له أنه لو استمر هكذا طويلا لأحس بوجوده ولاريب ، لكن هذا لم يحدث ففى اليوم الأخير من أيام الشتاء حين بدأ الجليد يذوب ، عاد الطائر الرهيب يردد كلمات الفشل عينها .

وطفق يفكر « لعل الآلام التى أنشدها هيئة بسيطة ، ولو أردت أن أكون بائسا حقا لتحتم أن أمزج أحزاني بعنصر الذلة والهوان » . وتحقيقا لهذا الهدف ، انطلق الى الصين حيث وقع فى غرام عنيف مع فتاة صينية بارعة الجمال تحتل مكانة مرموقة فى لجان الحزب الشيوعى . وراح يلفق الوثائق ويזורها حتى أدينت الفتاة كجاسوسة للحكومة البريطانية ، وتعرضت فى حضرته لألوان من التعذيب المبرح . وحين بلغ العذاب حد الموت قال لنفسه : « الآن قد تأملت حقا ، فقد أحبيبتها لآخر لحظة حبا جما ، وحطمتها بخيانتى المشوبة بالجبن والندالة ، ولامراء فى أن هذا يبعث فى نفسى من الألم والضنى أقصى ما تتحمله الطاقة البشرية » . ولم تكن هذه هى الحقيقة ، وبرهة عنيفة أفقدته القدرة على الحركة ، راح يرقب طائر القدر يعود ليخلق فى الأفق وينطلق ثانية بصوت الشاعر الخالد الذى قدم الطائر الى الوسط الأدبى فى باريس .

وأخذ يعبر عن يأسه بمشقة بالغة بينما الطائر لا يزال يخلق فى السماء قائلا : « أيها الغراب ، هل هناك فى هذا العالم الفسيح بأسره ما يحملك على الاعتراف بأنى موجود ؟ » . فلم يفه الغراب الا بكلمة « عليك بالبحث » ثم اختفى عن الأنظار .

(١) الإشارة هنا الى الرواى والشاعر الأمريكى الشهير « ادجار آلان بو » الذى تتميز مؤلفاته بالخيالات الغريبة ومنها صورة الغراب المثار اليه هنا (المراجع) .

ولا يمكن الزعم بأن « بورفير » قد ترك بحثه عن الألم يستولى على كل نشاطه ، لكنه ظل دائما الشاعر الفيلسوف يحظى بالاعجاب والتقدير في كل مكان ولاسيما في أكثر الدوائر سرية . وعند عودته من الصين دعى لحضور مؤتمر للفلسفة عقد في باريس ، كان هدفه الأسمى تكريمه وتبجيله ، وحضر المدعوون ما خلا الرئيس ، وبينما كان يتساءل عن موعد قدوم الرئيس أقبل الغراب واحتل مقعد الشرف . واستدار ناحية « بورفير » وعدل من عباراته المألوفة وصاح بصوت مجلجل تناهى الى سمع أعضاء المؤتمر جميعا : « لا وجود لفلسفتك ، فهي عدم » . وما أن تفوه بهذه الكلمات حتى غمرت كل كيان الفيلسوف موجة من الرعب والكرب لم تدانها تجربة سابقة وسقط مغشيا عليه ، وحين عاد الى رشده ، سمع الطائر يردد ما كان يتوق الى سماعه : « أخيرا أنت تتألم . أخيرا أنت موجود ! » .

واستيقظ فاذا هو حلم .

لكنه لم يعد بعد اليوم يتحدث عن الفلسفة أو يكتبها .

حلم عالم الرياضة

حلم بروفسير سكوير بونت

شرح تمهيدى

عندما كان صديقى ، المأسوف عليه « بروفيسور سكوير بونت » ، عالم الرياضة الذائع الصيت ، على قيد الحياة ، كان صديقاً لسير « آرثر ادنجتون » ومن المعجبين به . لكن هناك نقطة واحدة فى نظريات سير آرثر كانت تبعث دائماً حيرة وقلقا فى نفس بروفيسور سكوير بونت . وهى القوى الكونية الخفية التى كان سير آرثر ينسبها الى الرقم ١٢٧ ، ولو كان ما يفترض أنه يميز هذا الرقم خواص حسابية فحسب لهان الأمر ولما أثيرت أية مشكلة ، بيد أن هذا الرقم قد أظهر فى ميدان العلوم الطبيعية قوة لا تختلف عن تلك التى نسبت الى الرقم ٦٦٦ ، وبات مؤكداً أن ما دار مع سير آرثر من محادثات كان له أثره على حلم بروفيسور سكوير بونت .

بعد أن نال التعب من عالم الرياضة اثر يوم حافل بدراسة نظريات « فيثاغورس » غالبه الناس فى مقعده ، فراودت أفكاره النائمة مسرحية غريبة لم تكن الأرقام فيها مجموعات جامدة ، كما كان يظنها قبلاً ، بل كائنات تنبض بالحياة ، وهبت جميع العواطف التى كان يألفها فى رفقائه علماء الرياضة . ورأى فى حلمه أنه يقف وسط دوائر متحدة المركز لا نهاية لها . فالدائرة الأولى تضم الأعداد من ١ الى ١٠ ، والثانية من ١١ الى ١٠٠ ، والثالثة من ١٠١ الى ١٠٠٠ وهكذا الى ما لا نهاية ، فوق سطح غير متناه لسهل لا حدود له . كانت الأعداد الفردية مذكرة والزوجية مؤنثة ، وكان يقف الى جواره فى الوسط مقنع الوجه «بى» (Pi) رئيس التشريفات الذى كان معروفاً عنه أنه ما من أحد يرى وجهه ثم يظل بعد ذلك على قيد الحياة . لكن عينيهِ الثابتتين كانتا تطلان من خلف النقاب تتسمان بالغموض والعنف والصفاء .

وكان لكل رقم اسمه المنقوش بوضوح فوق زيه ، اذ كان لأنواع الأرقام المتباينة أزياء مميزة وأشكال مختلفة ، فكانت المربعات تربيعات ، والمكعبات زهر النرد ، والأعداد الصحيحة كرات ، والأعداد الأصلية أسطوانات كاملة ، كما كان للأعداد الكاملة تيجان • والى جانب تنوع أشكالها كانت الأرقام أيضا متعددة الألوان • فكانت ألوان الحلقات السبع الأولى المتحدة المركز هى ألوان قوس قزح السبعة ما خلا ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ الخ التى كانت بيضاء اللون ، بينما كانت ١٣ ، ٦٦٦ سوداويين وإذا كان أحد الأرقام ينتمى الى فئتين من هذه الفئات، فمثلا اذا كان مثل الرقم ١٠٠٠ مستديرا ومكعبا فى آن واحد فانه يرتدى زيا أكثر تكريرا ، وهذا الزى هو ذلك الذى يقل وجوده بين أعداد المليون الأولى •

وأخذت الأعداد تتراقص حول بروفيسور سكوير بونت وبين «بى» فى رقصة باليه معقدة تضم أعدادا غفيرة من الراقصين ، ونسجت المربعات والمكعبات والأعداد الأصلية والهرمية والصحيحة والكاملة سلاسل متشابكة فى رقصة لا نهاية لها يقف فيها المرء مذهولا مندهشا • وانطلقت ترقص وهى تردد أغنية تشيد بعظمتها :

نحن الأعداد المحدودة

نشكل مادة هذا الكون

ونحيل الأرض منبسطة

مهما الاضطراب أعاقنا

ونبجل أستاذنا فيثاغورس

ونسخر من كل جنية أو جحش

وكنيع للحكمة لا نسلم

بمساحرة « أندرو » ولا بحمار « بلعام »

ورحنا نلف ونلف نرقص « الباليه »

أشبه بشهب رآها « هاليه »

ونعمنا بتكريم « أفلاطون » الخالد

من لم يفقه ممن لحقوه أحد

ونسير حسب القواعد

دون هـوادة

فنحن الأعداد المحدودة

وبإيماءة من « بى » ، توقف الرقص وقدمت الأعداد للبروفسور سكوير بونت الواحد تلو الآخر ، وراح كل عدد يلقي خطابا موجزا يعرض فيه مزاياه .

١ - أنا والد الجميع ، وأب لسلالة غير محدودة ، ولولاي لما وجد أحد .

٢ - لا تكن هكذا متغطرسا ، أنت تعلم أن الواحد لا يزيد الا باثنين .

٣ - أنا الرقم « المثلث » ، رقم حكماء الشرق ، والنجوم فى حزام أوريون ، وآلهة الرومان التى تقرر مصير الانسان ، والحسان الثلاث .

٤ - لولاي لما وجد المربع وما كانت فى العالم امانة . فأنا حامى حمى قانون الأخلاق .

٥ - أنا عدد أصابع اليد ، وأصنع اشكالا خمسة الزوايا والأضلاع ، ولولاي لما كان للأشكال ذات الاثنى عشر وجها وجود ، ولا يخفى على أحد أن الكون ذو اثنى عشر وجها منتظما ، وهكذا لولاي ، ما وجد الكون .

٦ - أنا العدد الكامل ، وأعلم أن لى منافسين محدثين اذ يزعم ٢٨ و ٤٩٦ أنهما صنوان لى . لكنهما فى ميزان المقارنة يبرهنان على أنهما أقل شأننا منى بكثير .

٧ - أنا العدد المقدس : عدد أيام الأسبوع وعدد بنات الأطلس السبع ، وعدد فروع الشمعدان السبعة ، وعدد الكنائس فى آسيا ، وعدد الكواكب . فأنا لا أعترف بذلك المجدف « جاليليو » .

٨ - أنا أول المكعبات ، باستثناء العدد واحد القديم المسكين الذى لم تعد تقوم له الآن قائمة .

٩ - أنا عدد ربات الشعر والأدب ، وعلى يتوقف سحر الحياة وجمالها .

١٠ - جرى بك أيتها الوحدات البائسة أن تفخرى ، أما أنا فأب فى العماد لهذا الجيش العرمم من خلفى . وكل فرد مدين لى باسمه ، ولولوى لما كانت سوى فوضى ، ولما انتظمت فى ترتيب هرمى .

وهنا ضاق عالم الرياضة زرعاً بذلك كله فالتفت نحو « بى » قائلاً : « أترى أن ثمة داعياً لبقية التقديم ؟ » وعندئذ دوت صيحة مجلجلة : ١١ - صرخ قائلاً : « أما أنا فكنت عدد أحبار المسيح بعد ارتداد يهوذا » .

١٢ - صاح قائلاً : « لقد كنت سيد الأعداد فى أيام البابليين - بل كنت أفضل بكثير من العدد البأسى ١٠ الذى يدين بمركزه الى مصادفة بيولوجية وليس الى أى تفوق فى عالم الحساب :

١٢ - زمجر قائلاً : « أنا سسيد الحظ العاثر ، فاذا عاملتنى بعنف نلت جزاءك من جراء ذلك » .

وحدثت ضجة عنيفة حملت عالم الرياضة على أن يغطى أذنيه بكلتا يديه واستدار نحو « بى » ورماء بنظرة تنم عن توسل واستعطاف . فلوح « بى » بعضاً سائقه القصيرة ونادى بصوت كالرعد : « صه » ، والا بات جميعكم غير قابل للقياس فامتقع لونهم جميعاً واذعنوا للأمر .

ولاحظ البروفسور أثناء فترة الرقص أن بين الأعداد الأصلية عدداً ١٢٧ الذى بدأ متمرداً غير قانع بمكانه بين الأرقام الأخرى ، وحاول مراراً أن يسبق ١ ، ٢ ، ٢ ، وأظهر من التمرد ما هدد بتدمير نظام الباليه . أما الذى أثار دهشة بروفسور سكويربونت أكثر من هذا المسلك الشاذ ، فهو طيف فارس من فرسان الملك آرثر ظل يهمس فى أذن ١٢٧ : « تقدم ! تقدم ! لتبلغ القمة ! » وبالرغم من صعوبة التعرف على شخصية الطيف فان البروفسور تمكن من أن يتبين ملامح صديقه سير آرثر غير الواضحة ، مما حدا به الى العطف على الرقم ١٢٧ رغم ما يكنه « بى » له من عدااء دفعه الى قمع هذا الرقم المتمرد .

وأخيراً صاح الرقم ١٢٧ قائلاً : « ان البيروقراطية الضارية هنا لمشهد مقيت ، وما أبتغيه هو حرية الفرد » واهتز قناع « بى » من شدة الغضب ، لكن البروفسور تشفع له قائلاً : « لا تقس عليه . لا ترى أن قربنا يتملكه ويوجهه ؟ اننى أعرف هذا القرين فى الحياة ومن ثم يمكن أن أجزم بأنه هو الذى يوصى بما يظهره الرقم ١٢٧ من مشاعر مناهضة للحكومة . ومن جانبى أود الاستماع لرأى ١٢٧ » .

فما كان من « بى » الا أن أذعن فى شىء من التردد وقال بروفيسور سكوير بونت : « ألا حدثتني يا رقم « ١٣٧ » عن سر ثورتك ؟ هل يحركك الاحتجاج على عدم المساواة ؟ أم كل ما فى الأمر هو أن « الأنا » بداخلك قد تضخم بسبب مايكيله لك سير آرثر من اطراء ؟ أم أنك ترفض على أساس أيديولوجية عميقة ، الميتافيزيقا التى تشربها رفاقك من أفلاطون ؟ لاداعى للخوف من مصارحتى بالحقيقة ، فسوف أوفق بينك وبين « بى » الذى أعرف عنه ، على الأقل ، قدر ما يعرف عن نفسه » .

وهنا انفجر يقول مضطربا : « لقد أصبت كبد الحقيقة ، فانا لا أطيق ميتافيزيقيتهم ، وما انفك هؤلاء يزعمون أنهم خالدون ما يوحى به تصرفهم منذ أمد بعيد وهو أنهم لا يؤمنون بشىء من هذا القبيل . لقد استبان لنا جميعا أن سماء أفلاطون طابعها البلادة والكآبة . وأدركنا أنه من سخريه القدر أن تحكم عالما معقولا ، ومنذ أن هبطنا من السماء السابعة أضحت عواطفنا لا تختلف عن عواطفكم . وكل عدد فردى يحب العدد الزوجى المصاحب له ، كما تعطف الأعداد الزوجية على الأعداد الفردية وإن بدت لها جد غريبة . لقد أضحت امبراطوريتنا جزءا من هذا العالم وحين ينفجر العالم سوف تنفجر معه » .

ورأى بروفيسور سكوير بونت نفسه متفقا مع العدد ١٣٧ ، بينما حسبه الآخرون ، ومن بينهم « بى » ، مجدفا ، وثاروا عليه وعلى البروفيسور . واندفع الجيش العرمرم الممتد فى كل اتجاه وفج على نحو لا تبلغه العين ، صوب البروفيسور فى ثورة عارمة ، واستبد به الرعب هنيهة ما لبث بعدها أن تمالك نفسه ، وبعد أن استرد حكمته فجأة صرخ بصوت جهورى : « ابتعدوا عني ، فما أنتم سوى وسائل رمزية ملائمة » .

وبصرخة مجلجلة انفضت الصفوف الضخمة بأسرها واختفت فى سحابة . ولما استيقظ سمع البروفيسور نفسه يقول : « هذا هو مصير أفلاطون » .

حلم ستالین

(کتب قبل موت ستالین)

الحب يقهر كل شيء

بعد رشقات كبيرة من الفودكا المزوجة بالفلفل الأحمر ، أخذت ستالين سنة من النوم وهو جالس فى مقعده ، وبأصابعهم فوق شفاههم راح مولوتوف ، ومالينكوف ، وبيريا ، يحذرون الخدم المتطفلين من اطلاق راحة الرجل العظيم • ورأى ستالين - وهم يحرسونه - فى غفوته الحلم التالى :

لقد خاض غمار الحرب العالمية الثالثة وخسرهما ، ووقع أسيرا فى أيدي الحلفاء الغربيين • ولما كانت محاكمات تورمبيرج قد أسفرت عن عطف على النازيين ، قرر الحلفاء فى هذه المرة ، أن ينهجوا نهجاً مغايراً ، وسلم ستالين الى لجنة تضم البارزين فى « طائفة الكويكرز*» الذين راحوا يؤكدون أن هذا الرجل نفسه يمكن حمله ، بقوة المحبة ، على التوبة والحياة كمواطن معتدل رقيق الفؤاد •

وقرر أعضاء اللجنة غلق نوافذ غرفته حتى الانتهاء من مهمتهم الروحية خشية أن يأتى عملاً طابعه التهور والاندفاع ، والحيلولة دون أن تقع يده على مدينة قد يعتدى بها ، فى نوبة من السخط والغضب ، على أولئك المنهمكين فى تهذيبه • لقد آووه فى غرفتين مريحتين من منزل ريفى عتيق ، أوصدت أبوابه ما خلا ساعة كل يوم ، يصحبه خلالها أربعة من الكويكرز المفتولى العضلات فى نزهة قصيرة تستهدف تلقينه الاعجاب بجمال الطبيعة والاستمتاع بشقشقة العصافير • أما بقية اليوم فكان يقضيه فى القراءة والكتابة وأن كانوا قد منعوا عنه أى كتاب أدبى من شأنه أن يثير العواطف ويلهبها ، ولم يزود الا بالكتاب المقدس وقصة «رحلة الحاج»

(★) Quakers طائفة دينية اسما جورج فوكس حوالى سنة ١٦٥٠

ويسمى أعضاؤها أنفسهم بالاصحاب (المترجم) •

و « كوخ العم توم » الى جانب بعض روايات « شارلوت م . م . يونج » كوسيلة للعلاج فحسب ، ولم يكن يسمح له بالتدخين أو احتساء الخمر أو تناول الفلفل الأحمر . أما الكاكاو فكان بوسعه أن يحصل عليه فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، اذ كان البارزون من حراسه متعهدين لتوريد هذا الشراب المقيد الذى لا يسبب للمرء ضررا ، كما روى الاعتدال فيما يقدم له من الشاي والقهوة ، فلا يكونان بالقدر الوافر أو فى الوقت غير المناسب فيحرماه من نوم هادئ .

كان الرجال المتزمتون ممن وكلت اليهم مهمة رعاية ستالين يقضون ساعة فى الصباح ومثلها فى المساء ، يفسرون له مبادئ الحب المسيحى وما يمكن أن ينعم به من سعادة ، برغم كل ما حدث ، لو أنه اعترف بحكمتهم ليس الا ، أما الحاجة معه فقد اضطلع بها رجال ثلاثة يعدون أحكم من كان يؤمل فى قدرتهم على اقناعه بالحقيقة وعونه على أن يرى نور الحق الواضح ، وهم السادة : طوبياس توجود ، وصموئيل سويت ، وولبراهام ويلدون .

وكان ستالين قد تعرف على أولئك الرجال أيام مجده حين قاموا برحلة الى موسكو قبل أن تندلع نيران الحرب العالمية الثالثة بفترة وجيزة ليرجوه أن يقلع عن خططه ويحملوه على الاقتناع بخطأ أساليبه ، وطفقوا يحدثونه عن الصالح العام والحب المسيحى ويرددون ، بعبارات طليقة أخاذة ، ما تجلبه الوداعة على النفس من بهجة وحبور ، كما راحوا يؤكدون أن السعادة تكمن فى أن تكون محبوبا أكثر منها فى أن تبدو مرهوب الجانب . وأنصت لهم برهة وقد تذرع بصبر هو وليد الدهشة والاستغراب ، مالبث بعده أن انفجر فيهم وتسائل بصوت كالرعد : « ماذا تعرفون ، أيها النبلاء ، عن مباحج الحياة ؟ ما من أحد منكم يفقه شيئا يذكر عن نشوة السيطرة على أمة بأسرها بنشر الرعب والهلع بينما تدرك أن الجميع ييغون موتك ، لكن أحدا لا يجروء على التعرض لك ، كما تعلم أن أعدائك فى ربوع الأرض قاطبة غارقون فى محاولات لاطائل من ورائها لسبرغور أفكارك الخفية ، وأنت على يقين من أن سلطانك سيبقى بعد الاطاحة ليس بأعدائك فحسب بل بخلافك على حد سواء . إن أسلوب الحياة الذى تقدمونه لى أيها النبلاء لا يغيرينى ، فارجعوا الى سعيكم الوضيع وراء الربح الذى تخفونه بادعاء التقوى والورع ، واتركونى وشأنى فى اتباع أسلوب للحياة أكثر بطولة » .

وعاد الصحاب « الكويكرز » أدراجهم ، وقد باء مسعاهم بالفشل ،
فى انتظار فرصة مواتية أفضل • لقد كان يحدوهم الأمل بعد أن سقط
ستالين وصار فى قبضتهم ، أن يصير أكثر رضوخا وانصياعا • مما
يدعو للعجب أنه كان لا يزال على ما هو عليه صلافة وعنادا ، وكان
هؤلاء الصحاب ذوى حنكة واسعة وخبرة فائقة فى العمل مع الأحداث
المنحرفين ، واماطة اللثام عما فى نفوسهم من عقد ، وحملهم ، بلباقة
ولطف ، على الاعتقاد بأن الأمانة هى خير أسلوب للحياة •

وابتدره « طوبياز توجود » بالقول : ليتك ، ياسيد ستالين ، تكون
قد تبينت ما ينطوى عليه أسلوبك فى الحياة ، الذى كنت تتمسك به من
قبل ، من عدم حكمة ، لن أنكر شيئا مما جلبته على العالم من دمار
وخراب حيث أن ذلك ، كما ستؤكد لى ، سيفقدك صوابك ، لكن تمنع
فيما أنزلته بنفسك ، لقد سقطت من أوج مجدك وأضحيت أسيرا مغلوبا
على أمره ، وما بقى لك من عزاء انما مرجعه الى أن سجانيك لا يدينون
بمبادئك • لقد فارقتك تلك المباهج البشعة التى حدثنا عنها عندما زرناك
أيام مجدك ، ولو تسنى لك تحطيم حاجز الكبرياء وندمت على ما بدر
منك وتعلمت أن تجد السعادة فى سعادة الغير ، لأصبح لك هدف فى
الحياة وأحسست بالقناعة والرضى فى أيامك الباقية •

وعندئذ هب ستالين واقفا وصاح قائلا : « اذهب الى الجحيم أيها
المنافق الأبله • اننى لا أعى شيئا مما ترددون خلا انكم فى القمة وأنا
تحت رحمتكم ، وانكم ابتدعتم أسلوبا للازدراء بسوء حظى أشد حقا
وأكثر انذالا من أى أسلوب اتبعته فى القيام بحركات التطهير •

فقال السيد : سويت : « كيف تبدو ، يا سيد ستالين ، على هذا
النحو من الجور والقسوة ؟ ألا ترى أننا لا نكن لك سوى النوايا
الحسنة ؟ ألا تدرك أننا لا نبقى غير خلاص نفسك ، وما يحز فى نفوسنا
هو ما غرسته فى أعدائك وأصدقائك على السواء من عنف وبغض ؟
ولا تحدونا أية رغبة فى انذالك ، ولو تسنى لك أن تقدر العظمة الأرضية
على أساس قيمتها الحقيقية فحسب ، لأدركت أن ما نقدمه لك انما هو
فكاك من المهانة •

فصاح ستالين : « هذا ، فى الواقع ، أكثر مما يحتمل ، لما كنت فتى
ياقعا كنت أتقبل مثل هذا الحديث فى مدرسة القديس جورج ، بيد أن هذا

لا يمكن أن ينصت إليه رجل ناضج • بدون أن يضيق به صدرا ، ليقتنى
أومن بالجحيم حتى أتطلع الى ذلك اليوم الذى تطيب فيه نفسى بروئية
رقتكم وهى تتبدد مع اللهب اللافحة » •

فقال السيد ويلدون : « بئس ما تقول أيها العزيز ستالين ! أرجوك
ألا تستشيط غضبا ، فبالهدوء فحسب تدرك حكمة ما نحاول اظهاره لك » •

وقبل أن يرد ستالين الالهانة تدخل « توجود » ثانية وقال : « اننى
واثق من أن رجلا فى مثل ذكائك الخارق لن يظل أعمى عن الحقيقة أبد
الدهر ، لكنك فى اللحظة الراهنة بآدى الاعياء ، وأرى أن قدحا من
الكاكاو المهدى أفضل مما تحتسيه من الشاى المنبه » •

وعندئذ لم يعد ستالين قادرا على كبح جماح نفسه وأمسك بإبريق
الشاى ورمى به رأس توجود • فلأخذ السائل الساخن يتدفق من فوق
وجهه ، ومع ذلك لم ينبس الا بقوله : « كف عما تفعل يا ستالين ، ليست
تلك طريقة للمناقشة » •

وفى نوبة من الغضب استيقظ ستالين ، وظل ثائرا لحظة صب خلالها
جام غضبه على مولوتوف ومالينكوف وبيريا ، فارتعدت أوصالهم
وامتقع وجوههم ، لكن ما أن انقشعت سحب النوم حتى تبدد غضبه وراح
يستمتع برشفة عميقة من الفودكا المزوجة بالفلل الأمر •

حلم ايزنهاور

(كتب في عام ١٩٥٢ واستقالين على قيد الحياة)

ميثاق مكارثي - مالينكوف

بعد عامين من تولى ايزنهاور رئاسة الجمهورية أصبح مضطرا الى ان يدرك أن الصلح طريق ذو اتجاه واحد . لقد بذل ما بوسعه في سبيل ارضاء معارضيه الجمهوريين وخطب ودهم ، ظنا منه ، في بادئ الأمر ، أنهم سيستجيبون له . لكن شيئا من هذا القبيل لم يبد وشيكا . وفي احساس بالغ بخيبة الأمل عصفت به الأفكار المزعجة فحرمته النوم ساعات طوالا من ليلة صيف شديدة القیظ . وما أن غفت عيناه في نوم متقطع حتى انتابه كابوس محطم للنفس كشف خلاله صوت من المستقبل عن تاريخ نصف القرن التالي :

من المرفأ الآمن لمطلع القرن الواحد والعشرين يتسنى لنا رؤية مالا يمكن أن نراه بوضوح في الوقت الراهن وهو : أن عام ١٩٥٣ قد شهد بداية الاتجاه الجديد الذي غير وجه العالم . كانت ثمة مشكلات معينة لم يدركها آنذاك غير المتبصرين بعواقب الأمور ، من بينها أن الصناعة في كل دولة متحضرة قد حظيت بالاهتمام البالغ على حساب الزراعة ، مما أدى الى النقص في موارد العالم الغذائية . ومشكلة أخرى هي التزايد السريع في سكان الدول المتخلفة الذي جاء نتيجة للتقدم في ميدانى الطب والصحة . ومشكلة ثالثة هي الفوضى التى كان يخشى حدوثها من انهيار الامبريالية الأوروبية . وهذه المشكلات التى كانت عسيرة على أية حال ، قد أصبحت عصبية على الحل تماما بسبب الصراع القائم بين الشرق والغرب ففي غضون الأعوام الثمانية بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٣ استمرت خطورة هذا الصراع في التزايد ، ليس بالتطورات السياسية فحسب بل بما أحرز في ميدان القنابل الهيدروجينية وحرب البكتريا من تقدم مذهل . ولم يتقدم أى الجانبين بحل لهذا الصراع سوى تدعيم كتلته بما يحول دون هجوم الطرف الآخر عليه . غير أن تجربة الماضى قد دلت على أن هذه ليست الوسيلة التى يعلق عليها أمل كبير في تجنب اندلاع نيران الحرب .

ولم تلح في الاتفاق بواصر أمل جديد حتى أّبل عام ١٩٥٣ ، فاعتزل ستالين الحكم ووافته المنية ، ولما تولى مالمينكوف مقاليد الأمور خلفا له رأى من الحكمة أن يتميز عهده بانتهاج سياسة جديدة اسما وان كان جانب منها قد اتبع فعلا ، بيد أن خطرين أساسيين كانا يؤرقانه ويبعثان في نفسه قلقا واضطرابا ، فمن ناحية كان السخط يجتاح روسيا بأسرها ، ومن ناحية أخرى كان يخشى أن تصبح الصين ، عما قريب ، في قوة روسيا ، وتتحدى ما لها من سلطان على العالم الشيوعي ، ولدفع الخطر الأول لم يكن ثمة مفر من زيادة كبيرة في انتاج السلع الاستهلاكية الروسية على حساب التسليح . وفي مواجهة الخطر الثاني كان ينبغي الحد من خطر نشوب حرب عالمية ، وكان هذا اجراء حقيقيا اذا هي ابتغت الحد من سباق التسليح وهي أمنية مطمئنة . وفي هذه الأثناء جاء تغيير الحكومة في أمريكا بأخرى جمهورية تأكيدا لهذا الاتجاه ، وغاب عن أذهان الكثيرين في أمريكا وفي غيرها أنه اذا ما نشب صراع بين رئيس الجمهورية « والكونجرس » قد يجانب النصير « الكونجرس » بفضل ما للمال من قوة ونفوذ ، ولعل هذه الحقيقة مستمدة من تاريخ الصراع الذي دارت رحاه بين المالك والبرلمان في إنجلترا في غضون القرن السابع عشر . لكن السواد الأعظم من الأمريكيين ينكرون أن شيئا يمكن تعلمه من الماضي أو من دول أجنبية أخرى ، وكان الكثيرون ممن أيدوا الرئيس أيزنهاور في الانتخابات يرون أنه لو فاز بالرئاسة لساندت سياسته ، وغاب عن بالهم أن اختيارهم له انما كان يعنى منح السيطرة على الكونجرس « لتافت » و « مكارثي » . وهذان الرجلان ، هما اللذان كانا في الواقع ، يفرضان سيطرتهم على سياسة الولايات المتحدة في ظل حكم أيزنهاور . لكن نفوذ مكارثي أخذ يقوى رويدا رويدا في الوقت الذي كان يستبد فيه بالطبقة المتوسطة من الشعب خوف من الشيوعية وفزع من ضريبة الدخل وعندما يمسيك الديمقراطيون بأعنة الحكم يعمل هذان الاحساسان في اتجاهين متضادين ، أما مكارثي فقد اكتشف السبيل الى التوفيق بينهما وراح ينشر أن الشيوعية بيننا هي العدو الحقيقي للود ، وأن ما ينفق في مقاومة الشيوعية فيما بيننا يقل كثيرا عما يتطلبه خوض غمار حرب مع روسيا ، كما أعلن على الأمة بأسرها أنه طالما ظل الأمريكيون مخلصين ومتحدى الصفوف فلن تلحق بهم الهزيمة ، بل ويتبدد ما يحملهم على الخوف من مكاييد الاستبداد الأجنبي ومؤامراته . ولو طهرنا بلادنا من العناصر الغادرة لعشنا في أمان وسلام . ولكي يروى ظمأ الشعب الى مناهضة الشيوعية باتباع هذه

السياسة ، بات لزاما عليه أن يكتشف بصصفة مستمرة أعداء جددا في الداخل • ولقد أفلح مكارثي بفضل سيطرته على مكتب التحقيقات الفدرالي F.B.I. وبمساعدة شذمة الشيوعيين السابقين الموالين له ، فى نشر الرعب من وجود خيانة فى الداخل ، الى الحد الذى كان يعتبر معه كل عضو بارز من أعضاء الحزب الديمقراطى خائنا ، مأخلا نفة ضئيلة تضم رجالا أمثال سناتور « ماكاران » • وتحت ستار هذه السياسة أمكن توفير مبالغ طائلة من المال كانت تنفق فى عهد ترومان ، فى مساعدة دول أجنبية • كما اتخذ من انتشار الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا ذريعة لتأكيد أنه لا جدوى من وراء اتفاق المال على مثل هذه الدول التى لا يمكن الاعتماد عليها •

ووجد أيزنهاور نفسه عاجزا عن التصدى لهذه السياسة بالرغم من كراهيته لها ، لقد كان يأمل فى تدعيم حلف شمال الاطلنطى والتمكين من الدفاع عن أوروبا الغربية ضد أى هجوم شيوعى ، بيد أن الدفاع عن هذه المنطقة كان باهظ النفقات لانها تضم عددا كبيرا من الشيوعيين وعددا أكبر من الاشتراكيين الذين لا يقنون عن الشيوعيين عرضة لكراهية الأمريكيين ، ذلك لأن أوروبا لم تكن تعرب عن امتنانها ، ولم تدرك ما هى عليه من ضعف ووهن ، بل راحت تطالب فى ضجيج دائب بخفض التعريفات الجمركية الأمريكية ، كما أنها لم تخف كراهيتها لشيانج كائ شيك ، ولهذا الأسباب مجتمعة كانت الهزيمة حليفها ملازما لأيزنهاور فى الكونجرس •

وتمخضت سياسة مكارثي عن نتيجتين : فقد أدت ، من ناحية ، الى تضائل مناطق الصراع الخارجى وتخفيف حدة التوتر فى العلاقات مع روسيا ، وأوضحت من الناحية الأخرى ، أنه لا نجاة لأى مواطن يتخذ من مكارثي موقف المعارضة • وفى انتخابات الرئاسة لعام ١٩٥٦ فاز مكارثي بغالبية ساحقة فاقت ما حققه روزفلت منذ عشرين عاما •

ولقد مكن هذا النجاح الساحق مكارثي من أن يتوج أعماله بمعاهدة « مكارثي مالينكوف » ، التى انقسم العالم بموجبها بين هاتين الدولتين الكبيرتين ، فخضعت آسيا عن بكرة أبيها مع الجزء الواقع شرقى الألب من أوروبا لسيطرة روسيا ، بينما استولت الولايات المتحدة على نصف الكرة الغربى بأسره الى جانب إفريقيا وأستراليا وشطر أوروبا الواقع غرب الألب • واتفق الجانبان على حظر التجارة بينهما مهما يكن نوعها ، كما منعا أى اتصال باستثناء الاجتماعات الدبلوماسية النادرة التى

لامناص من عقدهما والتي تقرر أن تعقد في « سبتربرجن » • ورأى الطرفان أن تكون الصناعة خارج الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في أضيق نطاق لها عن طريق التحكم في المواد الخام وبتأخذ إجراءات أشد عنفا إذا ما اقتضت الضرورة ذلك • وأن تحتفظ أوروبا الغربية باستقلالها الصوري ، وبوسع دولها ، إذا ما شاءت ، أن تبقى على نظام عالمها القديم الذي يتمثل في الحكومة الحزبية وفي حرية التعبير والصحافة الحرة لكن التجول في ربوع الولايات المتحدة كان محظورا عليهم حتى لا يعيثوا فسادا بين المواطنين الأفاضل بما لهم من بدع عفا عليها الزمن •

وأخذت أمريكا عن النظام الروسي بعض سماته ، فلم يسمح الا بوجود حزب واحد هو الحزب الجمهوري ، وفرضت على الصحافة والأدب رقابة مشددة ، وأصبح ينظر الى النقد السياسي بشتى صورته على أنه نشاط هدام ، ومن ثم تعرض الناقد لجميع ألوان العقاب ، وأضحى هدف التعليم الأساسي هو تلقين المبادئ السياسية • وبقينا أنه وجد من كان يحس بالندم على هذه التغييرات ، لكن ما ينبغي التسليم به هو أنه ، بتوقيع هذه المعاهدة ، قد أمكن تجنب خطر نشوب حرب عالمية وخفض الأسلحة إلى حد كبير في كل من أمريكا وروسيا •

ولقد اكتنفت مفاوضات الميثاق بعض الصعاب ، منها معضلة اليابان ، ذلك أن أمريكا كانت قد أعادت تسليح اليابان أملا في أن تصبح حليفا لها ضد روسيا ، أما اليوم ففي ظل سيطرة روسيا وأمريكا المشتركة على العالم لم يعد السماح بوجود دولة قوية مستقلة أمرا ممكنا ، ومن ثم أجبرت اليابان على التجرد من الأسلحة ، وانضمت جزيرة هوكايدو الى روسيا بينما انحازت البقية الباقية من اليابان الى جانب أمريكا •

وانطوت المعاهدة على شروط حول مسألة الدعاية • فاتفق الجانبان على حظر أية دعاية مناهضة لأمريكا في روسيا وأي نشاط معاد لروسيا في أمريكا ، ولا يسمح لأحد في روسيا بأن يبحث في الحقيقة التاريخية القائلة أن بطرس الأكبر كان أمريكيا ولا يسمح لأحد في أمريكا بأن يتحقق من أن كولومبوس كان روسيا ، وعلى كل روسي ألا يتعرض لمشكلة اللون في الولايات الجنوبية ، وأن يتجنب كل أمريكي أية إشارة الى أعمال السخرة في روسيا • كما كان من واجب كل طرف أن يشيد بانتصارات الطرف الآخر ، وأن يبرز دائما في المستقبل ، ما ينطوى عليه تحالفهما الخالد من مزايا •

ولم تلق المعاهدة تأييدا فى أوروبا الغربية إذ وضعتها فى مرتبة وضيعة قادتها اليها تلك الحرب الضروس التى خاضت غمارها • ولم يكن أمرا هينا أن تدعن أوروبا الغربية لضياح مركزها ، وهى التى ظلت قرونا طويلة تفرض سلطانها السياسى والثقافى على شعوب الأرض قاطبة • وأبدى الكثيرون من الأمريكين ، مراعاة للتقاليد التى يسلمون بأنها قد ساعدت فى بناء الحضارة الأمريكية ، استعدادا لمعاملة أوروبا الغربية باحترام بدأ فى ذلك الحين ، على أساس الوضع القائم للعالم ، وكأنه افراط تجاوز الحدود • وكان من الواضح أنه لو نشبت حرب لدمرت ما بقى من حضارة أوروبا الغربية حتى ان منيت روسيا بهزيمة منكرة فى نهاية المطاف ، ولم يكن هنالك ما يوحى بأن تجنب هذه الحرب بأية وسيلة أو تضحية غير المعاهدة ، كان أمرا مستطاعا • ومن ثم أغفلت مشاعر شعوب أوروبا الغربية عند ابرام الاتفاقية •

وكان لابد من أن يوجد فى كل جانب من كان يرى أن الطرف الآخر قد أحرز قصب السبق • فأشار بعض الروس الى أنه كان بوسعهم أن يفرضوا سلطانهم ، بعون من الصين ، على استراليا قبل أن يمضى وقت طويل ، وأن آملا كبيرا كان يحدهم فى ضم المانيا الغربية الى صفوفهم عن طريق التسلل السلمى • وكانوا يرون أنه كان يمكن تطهير أفريقيا حتى فى حالة عدم خضوعها لروسيا ، من البيض لو أمكن المضى فى امتصاص ما تبذله أمريكا وأوروبا الغربية من جهود فى مقاومة روسيا • وفى الجانب الأمريكى أثيرت بعض الشكوك الخطيرة ، فقد طفقوا يرددون أنه كان من الخطأ البالغ التضحية بقصدير الملايو ومطاطها ، لكن المطاط الصناعى وقصدير بوليفيا واستراليا كانا تعويضا كافيا • أما الأدهى من ذلك فهو فقدان بترول الشرق الأوسط • وتلافيا لهذا الخطر ، وحتى يكون الأمر مقبولا ، اتفق الطرفان على أن تنضم أندونيسيا الى الكتلة الأمريكية • هذا وقد كان فى أمريكا عدد من أشد الناس اقتناعا بأن الشيوعية شر ولا ينبغى عقد صلح معها أى معايشتها فى سلام • ولما كان أصحاب هذا الرأى نغرا قليلا معظمهم من الديمقراطيين ، فلم يكن لرأيهم وزن كبير ، وكان أهم كسب أحرزه الروس ، الى جانب تحقيق السلام ، هو الابقاء على الصين فى مركز التابع ، وذلك بالحيلولة دون تطورها الصناعى ، ومن ثم عادت الامبريالية البيضاء لتصبح فى أمان فى كلا المعسكرين •

وانطوت المعاهدة على امتيازات أخرى الى جانب صون السلام • فلقد كانت المنازعات والفتن بين الدول البيضاء قد أضعفت سيطرتها التى

فرضتها على آسيا وأفريقيا في غضون القرن التاسع عشر • وبايرام هذه المعاهدة عادت سيادة البيض لتقوى وتتدعم ، كما استطاع الروس أن يقهروا الهند وباكستان دون مشقة • أما مشكلة تزايد السكان التي ساء الزعم بأن حلها عن طريق تخفيض معدل المواليد عمل غير أخلاقي ، فقد أمكن علاجها بحرمان الزنوج من الإرشاد الطبي ، وحظر ما كان البيض يضطلعون به من إجراءات لتحسين أحوالهم الصحية ، ومن ثم ارتفعت معدلات الوفيات ، فتنفس البيض الصعداء •

ورغم هذه المزايا العديدة كان لايزال هناك بعض المتذمرين ، فقد كان في أمريكا من تاق الى قراءة شعر الشعراء الذين أشادوا بالحرية أمثال « ميلتون » و « بايرون » و « شيلي » • لقد ظلت أعمال هؤلاء الشعراء تقرأ لفترة محدودة في أوروبا الغربية ، ولما نمت الى علم الكونجرس أن مؤلفاتهم توزع في طبقات زهيدة الثمن في تلك الدول الرجعية قرر فرض عقوبات اقتصادية حتى يتم تصنيف هذه الكتب ، ونعم العالم الجديد الذي خلقته المعاهدة بانتعاش مادي كبير • لكن لم يكن ثمة فن أو فكر جديد الى جانب قدر ضئيل من العلوم المبتكرة الحديثة • فقد حظرت العلوم الطبيعية النووية حظرا تاما ، وأحرقت الكتب التي لها علاقة بها بلا استثناء • ومن كان يظهر المأما بهذه العلوم كان يحكم عليه بأعمال السخرة • ودأب بعض الرومانسيين المخدوعين على النظر الى الوراء وقد ملأتهم الحسرة على القرون الخوالي التي شهدت شخصيات عظيمة ، ولو كانوا حكماء لما باحوا بما يعتمل في نفوسهم •

وكانت الشكوك في بادئ الأمر قد استحوذت عليهم حول الوفاء بنصوص المعاهدة ، لكن مكارثي ومالينكوف كانا متفقين ومتحدين في أهدافهما ، فلم يتعذر عليهما التعاون الصادق البناء ، واختار كل منهما خلفا يؤمن بالأهداف نفسها • وكان مضي ثلاثة وأربعين عاما على توقيع المعاهدة كفيلا باقتناع الجميع ، ما خلا فئة ضئيلة من المشاكسين ، بأن الحلف راسخ بقدر ما هو نافع ، فلنسبغ على ذكرى الزعيمين العظيمين ، اللذين حققا للعالم السلام ، كل تكريم وتقدير •

حلم دين آتشييسون

كتبت قبل ترشيح أيزنهاور لرئاسة الجمهورية

أنشودة الموت لمينلوس .س. بلوجز

حلم دين أتشيسون ، أثناء تقاعده ، أنه قرأ في إحدى صحف الجمهوريين مقالا جاء فيه : « أن دين أتشيسون يقاسى ، كما يتوق أن يعرف ذرو الآراء السديدة ، من عقاب جريمته العادل • ولم يغب عن بالنا جميعا كيف أنه قرر بعد أن استجوبته لجنة الكونجرس ست ساعات متواصلة ، أن حادثة معينة مضى عليها سبع سنوات قد وقعت فى أحد أيام الثلاثاء ، لكن الأدلة الدامغة التى تبرهن على وقوعها يوم الاربعاء قدمت للكونجرس ، فحوكم بتهمة الادلاء بشهادة زور ، ونال جزاءه كمذنب ان صدر الحكم عليه بالسجن فترة طويلة • لكن بالرغم من ادانته لم يندم على ما ارتكب ، بل راح يؤكد لمن سمح لهم بزيارته بأن السياسة التى انتهجت من بعده ستؤدى حتما الى الدمار •

وما أن قرأ هذا المقال حتى تغير طابع حلمه ولاح له أن جانبا من الحجاب الذى يخفى المستقبل قد انزاح ، وانطلق صوت طيف خفى يعلن له بنبرات تنم عن حزن وأسى ، أحداث المستقبل • قال الصوت :

« هذه هى أنشودة الموت لسناطور » منيلوس • س • بلوجز • وهو على وشك أن يلقي حقه فى حادثة مروعة بجزر فولكلاند •

هناك من ينحى باللائمة على رئيسنا الخالد « بسمارك • ٩ • مكسافت » لما حل ببلادى من نكبات ، وكان لومهم ظلما وبهتاناً • وأرى لزاما على قبل أن توافينى المنية ، أن أسجل البطولة الرائعة التى ناضل بها هذا الرجل العظيم الهمام فى سبيل الحق • ومع الملايين غيرى يمنا وجوهنا شطر تلك الشواطىء المحايدة اعتقادا منا ، بناء على تقارير ادارة المصايد ، بأن منابع السمك فى المناطق الجنوبية لا تنضب • وأسفاه ، لم تكن تعرف سوى التزر اليسير من أبناء العلوم ، فما لبث ان استبان لنا

أن الإشعاعات الذرية قد قضت على كل سمكة تعيش في نطاق ألف ميل من هذا الأرخيبل الذي تلطمه العواصف والرياح العاتية ، مما أن طارت الأنبياء الأمل تعلم فناء تلك الأسماك حتى خاطرت شردة من الرجال المهوورين تناول ما لم يعض علم موته منها وقت طويل . لكن وأحسرتاه على هؤلاء الرجال ، فقد برهن ما تناولوه على أنه قاتل ، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم يعانين آلاما مبرحة . وإن حرقنا من السمك سرعان ما التهمنا كل ما وقعت عليه أيدينا من أغنام وماشية قليلة في المراعى النادرة لتلك الشواطئ القطبية الماحلة . ثم أخذنا نعيش على الطحلب كحيوان الرنة ، بيد أن الطحلب ، للأسف ، لم يكن وفيرا ، وسرعان ما تلقى حتفها في هذا الطرف من العالم الحر تلك الفئة الضئيلة التى لا تعيش بين جدران السجن . وماذا عن المهمة التى أتت من أجلها ، انى لأحس بواجب نحو الأجيال القادمة ، أن وجدت ، وسوف يسئء الي ذلك الرجل العظيم الخير أولئك الأعداء الذين أطاحوا به ، ولسوف يدخل ما يسمونه هؤلاء الأوغاد تاريخا بفضيحة لا يستحقها . لكني عثرت على علية لا تتأثر بالأشعة الذرية سوف أودعها هذا السجل يحدونى الأمل في أن يكتشفها علماء الآثار في أحد العصور المستقبلية وينصفون ذلك الرجل العظيم الذى اندثر ولم يعد له وجود .

ولم يغب عن بالنا ، نحن الذين نعيش في هذه الجزر – ولا تزال قلوبنا تخفق مع الذكرى – تلك الغبطة التى ملأت نفوس المواطنين ذوى الآراء السديدة عندما اتضح في شهر نوفمبر من عام ١٩٥٦ ، أن مصير بلادنا العظيمة قد انتزع من أيدي أنصار ترومان واتشيسون الواهنة ومن أتباع أيزنهاور الذين لا يقلون عنهم ضعفا والذين لم يكونوا سوى أدوات يحركها الكرملين كيفما شاء ، ثم أوكل لمدة لا تقل عن سنوات أربع حاسمة لوطنية «بسمارك ٠١٠ مكسافت» الصادقة ، وما أن أصبح رئيسا للجمهورية حتى راح يعمل بذلك الحماس الصادق المتأجج الذى تميظ اللثام عنه خطبه القوية المترابطة ، لم تعد دول أوروبا الغربية الجبانة تفرض قيودا على جهاد أمريكا وحماسها في سبيل الحق . ولم يعد يسمح للخونة والشيوعيين المتخفين أن يزعموا بأن لشيانج كاي شيك مساوئه وأن الصينيين يمتقونه ولقد أرسل جيش عرمرم ليوليه السلطة في بكين فتظاهر الشيوعيون الصينيون بما كان ينتظر منهم من ضعف وخوار عزيمة ، وراحوا يتجذبون المعارك وجها لوجه ويجرون أبناءنا الشجمان رويدا رويدا الى قلب الجبال المقفرة ، ويحملوننا على تشتيت قواتنا في مناطق واسعة ، دفاعا عن المدن ، والسكك الحديدية والطرق المتشعبة . وفرضنا سيطرتنا كاملة ، كما كان

يبدو ، على شرقى الصين • بينما ظل الجزء الغربى بعيدا عن متناول أيدينا ، وتورطت قواتنا فى القتال شيئا فشيئا واستخدمت قنابلنا الذرية ، دون جدوى ، فى مناطق غير أهلة بالسكان ، بينما انقسمت جيوش العدو الى عصابات متنقلة •

وآنذاك أوقع الروس ، كما كان متوقعا ، بدول أوروبا الغربية البائسة ما حتمته رغبتهم الحقيرة فى الحفاظ على النفس ، واحتل الروس ، دون مقاومة تذكر ، الرور واللورين وشمال فرنسا • وسمح لذوى المهارات الفنية بالعمل كعبيد سخرة فى المنطقة ، وأرسل مادونهم لقطع الأخشاب فى غابات أركانجل أو استخراج الذهب من مناجم شمال شرقى سيبيريا • وانطلقت الغواصات الروسية تضايق تنقلات القوات الأمريكية فى الصين حتى بلغت مصاعبها فى النهاية حدا تقرر معه استدعاؤها الى أرض الوطن •

فى هذه الأثناء اعتنقت أمريكا اللاتينية - من « ريوجراندى » الى « كيب هورن » - المبادئ الشيوعية ، كما انضوت تحت لواء موسكو آسيا بأسرها ما خلا المناطق التى كانت القوات الامريكية تحتلها فعلا • وبفضل ما قام به دكتور مالان من نشاط تحول الأفريقيون الى الشيوعية ، وإبان الهجوم الذى شنته القوات الروسية على أوروبا الغربية قطعت رأس كل رجل أبيض فى أفريقيا من كيب بون الى رأس الرجاء الصالح • وبعد أن احتل الروس جنوب أفريقيا راحت الطائرات الضخمة تنقل القوات والذخيرة الى أمريكا اللاتينية ، واستطاعت الدعاية الواسعة النطاق ان تحمل سكان بيرو وبوليفيا والبرازيل على الاعتقاد بأن روسيا هى ناصية الرجل الأحمر فى نضاله ضد تعسف الأبيض واستبداده ، وانطلقت أفواج كبيرة من الرجال الحمر قام الكرمليين بتنظيمها وتسليحها ، تدفعها المذابح الرهيبة ، تتقدم عبر المكسيك لتقضى على فلول الجيش العائدة من الصين • • الجيش الذى ثبطت الهزيمة عزيمته ، وأنهكت الملايا قواه ولم يكن ، وان كنت اعترف بذلك فى خجل ، مقتنعا تماما بعدالة قضيته •

ولما رأيت أن كل شىء قد ولى ، أبحرت مع كثيرين غيرى فوق ظهر سفينة كانت تقف على أهية الاستعداد فى نهر بوتوماك • ٥٥ ، يا للعار ! لقد امتد أجلي لأشاهد المطرقة والمنجل يخفقات فوق مجلس النواب الأمريكى • • ولولا يد العناية الالهية الرحيمة التى أخفتنا فى سحابة مرت فجأة فلذنا بالفرار ، لأغرقت المدافع الروسية سفينتنا الصغيرة •

ان بيننا من يقول ان هذه الأحداث المؤسفة ان دلت على شىء فانما تدل على قصور سياسة رئيسنا العظيم ، لكن أولئك الرجال لا يفقهون فى

الأمور الأخلاقية شيئاً • فمن الأفضل كثيراً أن نقاتل في سبيل الحق ونموت أبطالاً من أن نغمس في اعتبارات سياسية وضعية من شأنها أن تنقذ أجسادنا ، لكنها تطيح بنفوسنا • لم يعد للولايات المتحدة ، من الناحية المادية ، وجود ، لكنها ستبقى ، من الناحية الأخلاقية ، أبد الدهر منارا هاديا وضوءا ساطعا نقشت فوق لوائه الخالد الكلمات الرائعة لآخر وأنبل رئيس لجمهوريتنا :

« سوف نقاتل في سبيل العدل والحق وإن سقطت السموات ،
ونناضل من أجل الحرية وإن أدى ذلك الى سجن تسعة أعشار شعبنا » •
وبهذه الكلمات الخالدة المنقوشة على صفحة قلبي أعد نفسي في سكينة للموت •• أمين ••

وقد بلغ تأثر دين أتشيسون بهذه القصة الغريبة القاتمة حدا تعذر معه تصديق أنها لمحة حقيقية عن المستقبل ، وعلى أساس هذا الاعتقاد أفضى برؤيا « سسنا تور بلوجز » الى محاميه الذي استغلها في تأييد الاستئناف الذي يطالب فيه بإعادة النظر في الحكم بحجة وجود اختلال في العقل •

وهتف دين أتشيسون يقول « ولكنى لست معتوها » • وبهذه الصيحة استيقظ من سباته •

حلم الدكتور سوثيرت فلبس

انتصار العقل على المادة

قضى الدكتور «سوثبرت فلبس» يوما طويلا مضنيا في وزارة الانتاج الآلى يحاول اقناع المسؤولين بأنه لم تعد ثمة حاجة الى البشر في المصانع باستثناء شخص واحد لكل مبنى يقوم بالحراسة ، ويفتح مفتاح التشغيل ويغلقه . كان يشغل حماسا ، بيد أن عقلية البيروقراطيين التقليدية الجامدة كانت تحيره وتقلق نفسه ، ولقد أشار هؤلاء الى أن مشروعاته تتطلب استثمارات طائلة لاقامة المصانع الآلية ، التى قد يدمرها العمال المتظاهرون أو تشل نشاطها نقابات العمال الساخطة قبل أن يصبح انتاجها كافيا . وبدت له مثل هذه المخاوف تافهة لا يتصورها عقل . واستبدت به الدهشة إذ أن هذه الأحلام الرائعة التى ألهمتها حماسه لم تثر لتوها أمالا مماثلة عند أولئك الذين سعى الى الاتصال بهم . وما كان يبتعد عن أمطار شهر مارس الباردة ، فى حال من الإعياء والقنوط ، حتى غاص فى مقعد وراح يغط فى سبات عميق ، وفى نومه ذاق النصر الذى حرم منه فى ساعات يقظته . وحلم ، وكان الحلم جميلا ممتعا :

كانت الحرب العالمية الثالثة تمر ، كحصار طروادة ، بعامها العاشر، ومن وجهة النظر العسكرية لم يكن مجراها محددا بل متأرجحا ، فكان النصر يبدو تارة الى جانب وتارة الى الجانب الآخر ، لكنه لم يدانف طرفا دون الآخر فترة طويلة . أما من الناحية الفنية ، وهى التى كانت تهم دكتور فلبس ، فكان نجاحها هو كل ما يتمناه .

فى غضون العامين الأولين للحرب حل الانسان الآلى محل العمال الأدميين فى جميع المصانع القائمة على الجانبين ، ومن ثم تسنى توفير احتياطي ضخم من القوى العاملة للجيش المتطاحنة . بيد أن هذا التطور الذى لقي ترحيبا بالغاً من الحكومات فى بادئ الأمر ما لبث أن برهن على أنه لا يحقق الآمال المعقودة عليه . فكانت الخسائر فى الأرواح - التى تمخضت أساسا عن حرب البكتريا - مذهلة ، وفى أجزاء من الجبهات

الواسعة تمرد من ظلوا على قيد الحياة بعد أن اجتاحتهم الأوبئة الفتاكة ، وراحوا يطالبون بالسلام • واستبد اليأس بالحكومات المتطاحنة لفترة غدا اذكاء نار الحرب خلالها أمرا متعذرا ، أما دكتور فلبس ، وفينيكوفسكى ستوكنمودوفتش ، المناظر له على الجانب الآخر ، فقد اهتديا الى السبيل للتغلب على تلك الأزمة •

لقد تمكن العالمان ابان العامين الثالث والرابع للحرب من صنع جنود آليين حلوا محل الآدميين في سلاح المشاة على الجانبين ، واتسع نطاق العملية خلال العامين الخامس والسادس حتى شملت جميع الضباط ممن هم دون رتبة لواء • واستبان لهما أن مهمة التعليم أو التوجيه - كما كانوا يسمونها رسميا آنذاك - يمكن أن تضطلع بها الآلات بصورة أدق لو تولاهما المعلمون والأساتذة الآدميون ، وإن كان من المتعذر إزالة الفوارق الفردية بين المعلمين الآدميين ، فإن الأعداد الضخمة من المفقهين الآليين التى صنعها الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش كانت تردد بلا استثناء شيئا واحدا وتلقى الخطب بحذافيرها حول أهمية النصر • وما تمخض عن ذلك من رفع الروح المعنوية ، كان مذهلا حقا • وفى العام الثامن للحرب لم يكن هناك من الشبان الذين تدربوا لتولى القيادة العليا للجيش الآلية الضخمة من يرهب الموت المحقق فى المناطق الموبوءة بالطاعون حيث كان القتال دائرا ، وبينما هؤلاء الشبان يلقون حتفهم أمكن للبراعة الآلية أن تتطور شيئا فشيئا حتى توصلت الى ما يغنى عن استخدامهم فى مثل هذه المعارك •

وفى نهاية الأمر كاد الانسان الآلى أن يضطلع بكل شئ ، ومع ذلك لم يتيسر ، حتى الآن ، الاستغناء عن بعض الكائنات البشرية •• عن خبراء الجيولوجيا لتوجيه الانسان الآلى لبث الألغام فى مناطق محددة ، وعن الحكومات للبت فى المسائل السياسية الكبرى ، وعن الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش لتكريس عقليهما الجبارين لضروب من الابتكارات المذهلة •

كان هذان الرجلان يملأهما الحماس ، كما كانا يعيشان فوق مستوى المعركة بمعنى أنهما لم يبتما بالأمر التى يزهم عليها السياسة فصاحتهم بل راحا يركزان جل جهودهما للبلوغ بآلاتهم درجة الكمال • ولم يكن أيهما يرغب فى أن تضع الحرب أوزارها خشية أن يعود الرجال الى أساليبهم التقليدية ويصرون على استخدام السواعد والعقول البشرية فيما يمكن للانسان الآلى أن يضطلع به دون كلل وبدقة أكبر • وربطت أواصر الصداقة

الحميمة بين هذين الرجلين ، ان كانت أهدافهما واحدة وان أخفيا هذه الحقيقة عن الساسة الذين كانوا يستخدمونهما • واستغل العالمان بعض قواتهما الآلية لشق نفق في قلب جبال القوقاز التي كانت قوات الغرب تسيطر على طرف منه ، بينما كان الطرف الآخر يخضع لسلطان قوات الشرق ، ولم يكن هناك من يعرف - خلاف الدكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفتش - أن للنفق منفذين ولم يسمحا لغير الانسان الآلى بارتداده ، كما استخدموا الانسان الآلى لتفتئة النفق واضاءته وتكديس كميات الطعام الضخمة داخله في شكل « كبسولات » أعدت بطريقة علمية للمحافظة على الحياة والصحة ، وان كان مذاقها غير مستطاب ، فقد كان كلاهما يعيش حياة العقل ويعرض عن ملذات الجسد وشهواته •

وسمح الدكتور فلبس لنفسه ، وهو يهم بدخول النفق ، ببعض التأملات الخاصة عن عالم الشمس المشرقة الذى ينوى هجره مؤقتا للاجتماع بالرفيق ستوكنمودوفتش في أحد مؤتمراتهم الدورية ، وراح يحلق فى البحر من أسفل وفى القمم الثلجية من أعلى ، فطافت بخياله ذكريات غامضة عن التعليم الكلاسيكى الذى أفقده - دون رغبة منه بل بأمر والدين متخلفين - سنوات حياته المبكرة • وهكذا طفق يفكر قائلاً لنفسه : « فى هذا المكان كبل زيوس برومثيوس بالأغلال •• برومثيوس الذى اتخذ الخطوة الأولى فى سبيل ذلك التقدم العلمى المجيد ، والذى قاد الى تحقيق ما بلغناه من كمال فى الوقت الراهن ، وكان زيوس • شأنه فى ذلك شأن الحكومات فى أيام شبابنا ، يؤثر الأساليب القديمة • لكن برومثيوس لم يعرف ، على النقيض منى ومن صديقى ستوكنمودوفتش السبيل الى التفوق بالدهاء على الرجعيين فى عصره ، ومن اللائق أن أحقق النصر حيث تالم برومثيوس وأن نميط اللثام عن مكانة زيوس وعوده التافهة بما لنا من براعة ذرية » • بهذه الكلمات ودع ضوء النهار وتقدم حيث يلتقى بصديقه •

كان الرجلان قد عقدا ابان الحرب مؤتمرات سرية متعددة ، ودأب كل منهما على أن يطلع - فى ثقة متبادلة - صديقه على ما وصل إليه من اختراعات تذكى نار الحرب وتدفع الى استمرارها •

وفى منتصف النفق التقى بصديقه ستوكنمودوفتش قائما من الشرق ، وتشابكت أيديهما ، وحلق كل منهما فى عينى الآخر فى حب خالص فياض ، وقبل أن ينغمسا فى المسائل الفنية سمحا لنفسيهما بالاستمتاع هنيهة بعملهما المشترك وطفقا يرددان : « ياجمال العالم الذى تخلقه ، ان بنى

الانسان لا يستقرون على حال ، فغالبا ما ينتابهم الجنون ويتسمون بالجبن وتارة تستبد بهم المثل المناهضة للحكومة ، فكم يختلف عن ذلك انساننا الالى الذى تضى الدعاية عليه أثرها المنشود » .

وانطلق الحكيمان يقول كل منهما للآخر : « ترى ما الذى ينشده اشد الأخلاقيين حمسا ولم نحققه نحن له ؟ فالانسان الأدمى عرضة للخطيئة ، أما الالى فمعصوم من الخطأ ، الأول يتسم بالغباء فى الغالب الأعم ، بينما لم يصدر عن الثانى شىء من هذا القبيل ، كما أن الأدمى عرضة للشذوذ الجنسى بعكس الالى » . وقال كل منهما للآخر : « لقد قررنا معا منذ أمد طويل أن السلوك أى ما يمكن أن يلاحظ من الخارج - هو ما يميز الانسان . وسلوك الانسان الالى أفضل فى شتى النواحي من سلوك الانتاج البيولوجى وليد الصدفة الذى انتفخ فى غطرسة حمقاء بالبراعة الانسان الالى ودقة استراتيجيته وجراءة أساليبه ، بالبسائته وهو يخوض المعارك ! هل يحلم بأكثر من ذلك من هو ليس ضحية للخرافات التى عفى عليها الزمن ؟ » .

كان الدكتور فليس والرفيق ستوكنمودوفيتش قد اكتشفا الوسائل التى تجعل الانسان الالى يستجيب للفصاحة ويتأثر بها ، فكانت الخطب الرنانة لرجال السياسة المحنكين على الجانبين تسجل . وما أن ينطلق صوت الكلمات المؤثرة حتى تأخذ عجلات الانسان الالى فى الطنين ويتصرف على نحو ما كان الساسة ينشدون من الأدميين بل وبأكثر دقة . ولم يكن الأمر يحتاج سوى اختلافات طفيفة حتى يستجيب الانسان الالى لنوع من الدعاية مغاير لما يتأثر به ذاك الذى فى الجانب الآخر . فكان انسان الدكتور فليس يستجيب لما يفوه به رجل السياسة العظيم فى عالمنا الغربى من كلمات بليغة : « أيمكن أن نقف مكتوفى الأيدى مترددين ونحن نرى جماعات غفيرة قد عقدت العزم على أن تمحو الايمان بالله وأن تنتزع من قلوبنا ذلك الايمان بالخالق الرحيم الذى يعيننا على احتمال المشاق وعلى مواجهة الصعاب والأخطار ؟ وهل نقبل التفكير فى أننا لسنا سوى آلات بارعة على حد زعم أعدائنا الجبناء ؟ وهل نتخلى عن ذلك التراث الخالد للحرية التى ناضل من أجلها أجدادنا والتى فى سبيل الدفاع عنها اضطرونا الى أن نوقع على الآلاف عقوبات السجن الصارمة ؟ هل يمكن لأحد منا أن يتردد فى مثل هذه اللحظة ؟ وهل يتراجع واحد منا ؟ وهل يتصور أحدنا هنيئة أنه يمكن مقارنة التضحية بحياتنا الفردية وبكياتنا الشخصى التافه بالحفاظ على تلك المثل التى قاتل من أجلها أجدادنا وفى سبيلها أراقوا

الدماغ ؟ كلا ! وألف كلا ! الى الأمام أيها الأخوة المواطنون ! واذ نسير في هدى الحق ثقوا بأن النصر لقضيتنا في نهاية المطاف » .

كان انسان الدكتور فلبس الآلى مركبا على نحو يمكنه ، حين يكرر الحاكى تلك الكلمات العظيمة على مسمع منه ، من القيام ، بلا تردد أو شك ، بمهمته المحددة التى لم تكن تستهدف الا أن تثبت أن العالم لا تحكمه الآلية وحدها .

ولم يكن انسان الرفيق ستوكنمودوفيتش بأقل كفاءة ، فكان يستجيب بقدرة مماثلة لتسجيلات الحاكى لخطب القائد العام الملهمة : « أيها الرفاق، هل أنتم على استعداد لأن تظلوا أبدا الدهر عبيدا للمستغلين الرأسماليين الجبناء ؟ وهل يمكن ان تنتكروا للمصير العظيم الذى أعدته المادية الجدلية لأولئك الذين اعتقوا من الأغلال التى كبلهم بها هؤلاء المستغلون الأذنياء ؟ أيمن لما هو على هذا النحو من الجحود والانحطاط والقسوة كفسلفة الحكومة البريطانية الدنسة ، أن يفرض سيطرته على الجنس البشرى الى الأبد ؟ كلا ! وألف كلا ! الحرية لكم ان جاهدتم في سبيلها بعين الحماس الذى أعان روادكم على خلق الدولة العظمى التى هى الآن فارس أحلامكم . الى الأمام نحو النصر ! الى الأمام نحو الحرية ! والى الامام نحو الحياة والبهجة » . كان لهذه الكلمات التى راح الحاكى يعيدها تأثيرها البالغ على انسان ستوكنمودوفيتش الآلى .

والتحم الجيشان المتطاحنان بأعدادهما الغفيرة التى تبلغ الملايين واكتست السماء بالطائرات المتنافسة التى يقودها طيارون آليون . ولم يحدث قط أن قصر الانسان الآلى في أداء واجبه ، ولم يلذ مرة بالفرار من ميدان القتال ، ولم تهتز أجهزته يوما بفعل تأثير دعاية العدو .

ولم تكن سعادة دكتور فلبس والرفيق ستوكنمودوفيتش قد اكتملت قبل أن يلتقيا في العام العاشر لاندلاع نيران الحرب ، فالكائنات البشرية ما انفكت تعمل في الأجهزة الحكومية ، وما زالت تحتملها الضرورة كخبراء الجيولوجيا اللازمين لتوجيه الأنبيئ الى مصادر جديدة للمادة الخام اذ قد نضب معين الموارد القديمة . لقد كان هنالك خطر أن تعقد الحكومات صلحا ، أما الخطر الأدهى الذى يصعب تجنبه فهو أنه لو استبعد خبراء الجيولوجيا لتوقف نشاط الانسان الآلى باستنفاد المناجم . ولم يكن تجنب الخطر الأول أمرا متعذرا ، وحينما التقيا هذه المرة أفضى كل منهما الى الآخر بما لديه من خطط لازالة الحكومات على الجانبين ، بيد أن الحاجة

الى خبراء الجيولوجيا ظلت تؤرقهما فكرسا مداولاتهما في هذا الاجتماع
لحل تلك المعضلة . وأخيرا ، وبعد شهر من التفكير المضنى أمكن الوصول
الى الحل باختراع كشاف ألى قادر على توجيه غيره الى حيث توجد
المناجم ، فهناك كشافون آليون للعثور على الحديد وآخرون لاكتشاف
البترول ، وغيرهم للمتقيب عن مناجم النحاس واليورانيوم ، وهكذا بالنسبة
لجميع المواد التى تتطلبها الحرب التى تقوم على أسس علمية . ومن ثم
تبدد خوفهما من أنه حين ينضب معين المناجم تضع الحرب أوزارها
وتتوقف القدرة على الخلق والابداع .

وما أن انتهى من صنع هؤلاء الكشافين الآليين حتى قررا البقاء
فى نفقهما والانتظار فى هدوء حتى تباد البقية الباقية من الجنس البشرى .
كان شبابهما قد ولى ولاحت عليهما سمات الهدوء الفلسفى التى يتسم
بها أولئك الذين أكملوا رسالتهم فى الحياة ، وعاش الحكيمان - تسهر على
رعايتهما واطعامهما جماعات من الآليين التابعين - عمرا مديدا ، ووافتهما
المنية فى لحظة واحدة . ومات الرجلان سعيدين وقد أدركا أن الحرب لن
تتوقف طالما ظلت الأرض بلا دبلوماسيين يؤجلونها ، أو مستهترين تساورهم
الوساوس حول نقاء الشعارات المتنافسة ، أو مرتابين يشكون فى غاية
النشاط المبدع اللانهائى .

وفى غمرة الحماس التى ملأت نفسه استيقظ دكتور فلبس من نومه ،
وإذا هو يردد القول : « لا مخاطرة بالنصر بعد اليوم ! بل حرب الى الأبد »
ومن سوء حظه تناهت هذه الكلمات الى سمع المسئولين فزجوا به بين
جدران السجن .

« زهاتوبولك »

الفصل الأول

الماضي

فى رداء فضفاض وبخطى وثيدة أعتلى بروفسير « دريوزدستادز » ،
عميد كلية التعليم الطائر الصيت ، منصته بقاعة الانكا بمدينة كوزكو ،
بعد أن أعيد إليها رونقها وجلالها ، حيث واجه الحاضرين الذين كانوا
يتحركون شوقا الى سماعه فى مستهل العام الدراسى . وكان قد خلف
فى هذا المنصب الخطير أباه ، بروفسير « دريوزدست » - الذى لم يكن
دونه شهرة - بعد أن وافته المنية . أما من كان على وشك أن يحاضرهم
من الدارسين ، فهم المائة المنتقاة من طول البلاد وعرضها ممن كانوا
يبشرون بمستقبل باهر مشرق وإنهوا المرحلة العادية فصاروا يقفون
على أعقاب دراستهم العليا التى جعلت لكلية التعليم مالها من تأثير بالغ
على الرأى العام . وأشرأبت أعناق الشباب ينتظرون فى شوق ولهفة
كلمات الحكمة الرصينة - ونفى ذلك لم يداخلهم ذهنى شك - التى توشك
أن تتدفق من بين شفثيه . ولم تظهر بين تلك الصفوة المختارة دلائل أى
ذكاء متقد يستوقف الانتباه الا بين اثنين دون غيرهما : أحدهما ابنه
توماس الذى يرجى أن يخلف أباه فى مركزه المرموق حين تحين الساعة ،
والآخر فتاة رائعة الحسن ، عميقة التفكير ، تكتهب حماسا وغيره ،
اسمها « ديوتىما » كاذت قد أسسرت بالحب قلب توماس .

وتنحج البروفسير ورشف قليلا من الماء ، ثم طفق يقول :

« أن موضوع محاضرتى اليوم هو القرن الثلاثون قبل «زهاتوبولك»
أو القرن العشرون بعد الميلاد كما يطلق عليه الذين عاشوه . ويعتقد
الحكام من يزسحون سياسة التعليم فى هذه البلاد السعيدة أنكم ،
أيها الصفوة المنتخبة ، قد بتم راسخين فى فهم وتقدير عقيدتنا المقدسة
والالهام الذى ندين به للاله زهاتوبولك ، مؤسس هذه العقيدة ، رسوخا
يتسنى لكم معه أن تسمعوا عن عصور كانت تفتقر الى ايمانكم وحكمتمكم

نكون أن يختل اتزانكم العقلى . وبديهي أنه لن يغيب عن بالكم هنيهة
أنها كانت عصوراً غارقة فى دياجير الظلمات . وخليق بكم كذلك -
كباحثين مجدين فى دراسة التاريخ - أن تعزلوا ، وأن تكن مهمة شاقة
مضنية فى بعض الأحيان ، فى خيالكم كل ما تعرفونه عن المخلصين
الصالحين مدركين بأنه وسط الظلمة عينها قد وجد رجال يرقون الى
مستوى أفاضل الرجال ، اذا ما قيسوا - على الأقل - بمن كانوا
يعيشون فى زمانهم . وحرى بكم أن تتعلموا ألا ترتاعوا حين تعلمون
أن أولئك الذين كانوا يحظون باحترام الجميع وتبجيلهم كانوا يأكلون
البازلاء علانية وبلا حياء ! . ولعل الحقيقة الأخرى التى قد يصعب
عليكم التجاوز عنها هى أنه حين كان عدد أبنائهم يتعد ثلاثة الأولاد
لم يأكلوا ، كما نفعل نحن ، الزيادة من أجل مجد الدولة بل كانوا يبقون
عليهم ، فى أنانية ، أحياء . وخالصة القول أن من واجبك أن تنموا
فى ذواتكم ملكة الخيال التاريخى . دون أن يخفى عليكم أنه وان كانت
هذه فضيلة تتحلون بها أيتها النخبة المنتقاة ، إلا أنها ستكون عاملاً
هداماً جد خطير فيما لو انتشرت فى دوائر أرحب وأوسع نطاقاً .
واذكروا دائماً أن ما يتردد فى هذه القاعة إنما هو وقف على الحكماء
ولا ينبغى أن يذاع على السوقة ، وبهذا الشرط أبدأ مهمتى .

كان القرن الثلاثون قبل « زهاتوبولك » عصر انتقال سادته الفوضى
وعمه الاضطراب ، عصراً زخراً بالانتفاضات والنكبات ، عصراً استيعب
فيه عن النظرية الاغريقية - اليهودية بالنسبة البروسو - سلافية ،
وتلاشى فيه من عقول الصغار والكبار على السواء أساس العقيدة التى
بدونها لا يتعم المجتمع بأمن أو استقرار . كان منالك ما يعرفه ضحاًبا
الشك المدللون بعصر الايمان حين كانت الفلسفة الاغريقية - اليهودية
يتقبلها الجميع بلا جدال باستثناء اقلية ضئيلة كانت تخرسها المقطرة
ويأتى عليها التعذيب بالخازوق المنتصب فى قلب النار المتأججة . بيد ان
الذى وضع نهاية لهذا العصر عقيدة فاسدة ضارة لم تجد لها بيننا -
ويسعدنى التنويه بذلك - نصيراً واحداً ، تسمى بفلسفة التسامح . وأمن
الناس فعلاً أن بوسع الدولة أن تنعم بالاستقرار رغم الخلافات الجوهرية
فى معتقدات المواطنين الدينية . تلك هى البدعة التى أدت الى انهيار
النظرية الاغريقية اليهودية أمام الادعاء القوي للفلسفة البروسو - سلافية
وأرجو ألا يساء فهمى ، فأنا لا أذكر - وأملئ ألا يتصور أحدكم لحظة
أننى أفعل ذلك - أن ثمة ذرة من الحق فى مبادئ الفلسفة الاغريقية -
اليهودية أو فى تلك التى قامت عليها النظرية البروسو - سلافية ، إذ أن

واحدة منهما لم تتبأ بالاله زهاتوبوك ، ولم يتبنا ما للرجل الأحمر من تفوق فطري على ماعده من الأجناس ، كما لم يدركا المبادئ السامية التي تقوم عليها ، فى سعادة تامة ، كل من الحياة العامة والخاصة ، من بينهما حياتنا نحن ٠٠ انما أقول عن تلك الأنظمة التي عفى عليها الزمن شيئا واحدا فحسب : أقول انها طالما ظلت قائمة وآمن بها الناس بحماس بالغ يتحتم معه الاصرار على وحدة الصف ، استطاعوا بذلك توحيد المجتمع عن نمط معين - حتى وأن لم يرق ، بالطبع ، الى مستوى الكمال الذى بلغناه نحن بفضل الهام زهاتوبوك ٠ لقد كانت للأنظمة السالفة جميعا نقائصها التي أدت الى انهيارها ٠ فكان النظام البروسو - سلافى يبدو فى أوج مجده راسخ البنيان ، شأنه فى ذلك شأن الفلسفة الصينية - الجاوية التي أعقبته ، بيد أن ما انطوت عليه من نقائص قد أطاح بها فى نهاية المطاف ، وما خلا من الشوائب سوى نظام زهاتوبوك ، الذى سوف يكتب له الدوام - دون سواء - طالما وجدت كائنات حية تمد زهاتوبوك بالمتعبدين المؤمنين ٠٠٠

ومضى البروفسور يعلن أن معظم ما بين أيدينا من روايات عن انحلال الفلسفة الاغريقية - اليهودية قد سطر من وجهة نظر الظافرين ، فهي تبرز زحف النصر للاله ستالينوس واستئصال ما تبقى من المشايخين لذلك النظام المنهار فى كل بقعة من بقاع العالم ٠٠ وأشار الى أنه من واجب المؤرخ - لو تيسر له ذلك - أن يبحث عن روايات تمثل وجهة نظر الجانبين ، وأن يكون للمقهورين نصيبهم فيما يكتب فى هذا الصدد ٠٠٠

واستطرد يقول : « ومن حسن الحظ أنه ظهرت ، أخيرا ، فى جزر « فولكلاند » وثيقة تمكن من اطلاع عليها من أن ينظر بعين العطف الى ما تميزت به نهاية عصر عظيم من قنوط وارتباك بالغين » ٠

وبعد أن فرغ من تلاوة الوثيقة مضى يقول : « كانت أمثال هذه الوثيقة مجهولة بطبيعة الحال حين سادت الفلسفة البروسو - سلافية ، فتحت لواء الاله العظيم « دياميت » أسس سكان السهول الشمالية امبراطوريتهم المظفرة وساندوها بالتشريعات التعسفية التي لولاهما ما حظيت أساطيرهم بالقبول ٠ ولقد ذاع صيت رسولهم « ماركوس » و « ليننوس » فى جميع أنحاء الدنيا بواسطة الأيقونات التي كان على كل بيت أن يكتنيها ، ومن لم يحرزها كان الاعدام جزاءه ! ٠٠ ويات

المؤسسان يتميزان بطول اللحية وقصيرها على التوالي ، وساد الزعم بأن فضيلتهما التى تسلب اللب انما تكمن فى زوائدهما الكثيفة الشعر ، ٠٠٠٠ أما خليفتهما « ستالينوس » الذى كانت فضيلته عسكرية لا عقائدية فلم ينل قدر ما حظى به سلفاه من تكريم وتبجيل ، وليس أدل على ذلك من الاستعاضة عن اللحية بالشارب فحسب !! وسرعان ما انقرضت اللغة الألمانية التى سطرت بها الكتب المقدسة لتلك الحقبة بعد زوال عهد « ستالينوس » ، فلم يستطع قراءتها سوى نفر ضئيل من العلماء الذين لم يكن يسمح لهم بالاتصال بالشعب الا عن طريق السلطة السياسية العليا ، فلقد كان ذلك القيد ضروريا بسبب ما تضمنته تلك الكتب من فقرات ، لو ترجمت بحذافيرها لأثارت قلق الحكام واضطرابهم وحملت الحكوميين على الاستياء والتبرم .

« وسارت الأمور سيرها المحمود قرونا عديدة حتى جاء الوقت الذى توهم فيه الحكام أنهم فى أمان واطمئنان فأعاروا آذانهم لعلماء الصين المتشككين المحدثين ولم تكن لبعض هؤلاء المتشككين ، ولا غرو ، أية دوافع خفية بل كان يحركهم الفضول الفكرى الجامح الذى لعب دورا بالغ الشأن فى انهيار الحقبة السالفة ، لكن فريقا آخر يمثل الغالبية كان له هدف اسمى ، فلم يكن أفرادهم يرون أن ثمة مبررا لاحتكار البيض للكتب المقدسة ، وعقدوا العزم ، فى مخاتلة ودهاء ، على الحط من شأن تلك الكتب وجعلوا يوحون بأن فى لغتهم – التى يجهلها حكامهم – كتباً ضاربة فى القدم تفوقها قدسية وغموضا وتدعو للرهبة . وراحوا يستميلون حكامهم رويدا رويدا وينشرون الالحاد بين صفوفهم ، أما هم فقد عزفوا عن ذلك ، وبعد أن اتحدوا معا بأوثق الروابط التى تربطهم بها عقيدة سرية انطلقوا يحملون فى الخفاء متذرعين بالصبر لتقويض الصرح الشامخ للنظام البروسى – سلافى . وفى اليوم المعين الذى سبق أن حددوه فى مجالسهم السرية قبل وقت طويل ، هبوا للقضاء على حكامهم بسم مركز مستخلص من نبات كراكاتو البركانى ، ومن ثم بزغ فجر الحقبة الصينية – الجاوية التى سبقت عصرنا الميمون مباشرة

« لقد ظلت بلادنا العزيزة ، التى هى اليوم فى أوج مجدها وعظمتها وتنعم بأمن دائم ، اجيالا طويلة تقاسى آلاما مريعة مبرحة ، وفى غضون القرون الأربعة الأخيرة من العصر الاغريقى – اليهودى تعرض الرجل الأحمر للخداع ، أو أصبح طريد القانون ، أو انحط الى مرتبة العبيد .

وفرض الرجل الأبيض الصلف سلطانه على قارتنا العظيمة التى طردته منها الطبيعة الرحيمة ردحا من الزمن ابان ازدهار امبراطورية الانكا الأولى ، ولاح لفترة كائن الاطاحة بهؤلاء السادة القساسة تحمل بين جنباتها الحرية ، ولما كان « البروسيون - السلافيون » فى حاجة الى تأييدنا كى يطيحوا بالمعتدين من « الاغريق - اليهود » فقد جعلوا يقطعون أعظم الوعود بالحرية ليلهبوا حماسنا ويحفظوا بتأييدنا ، فما أن تحقق لهم النصر حتى حنثوا بالعهد وألفى الحمر الشجعان - من كان لمعونتهم أبلغ الأثر فى الظفر - أنفسهم فى حال لا يفضل ما كانوا عليه من قبل ، ولم يطرأ علينا أى تحسن فى ظل العهد الصينى - الجاوى . لكن التقاليد التليدة المستمدة من الماضى السحيق للانكا المقدسين وآثارهم التى ما برحت تخبر بمجدهم وعظمتهم ، هى وحدها التى أحييت الرجاء فى نفوس جماعة سررية صغيرة بأن اله أجدادنا سيعود ريمحننا السيادة التى نستحقها بما لنا من فضائل ولما قاسيناه من آلام وأوجاع .

« وانغمس الصينيون - الجاويون ، مثلهم مثل حكام العصور السائفة ، شيئا فشيئا فى المذات وفى الحياة الرغدة الناعمة ، فلم تغرم قمم جبالنا الوعرة ووديان أرضنا المقدسة الصعبة المثال ، فسكنوا القصور فى السهول ، وأحاطوا أنفسهم بكل ألوان الترف ، يرتدون الحرير الناعم ويتكئون على الوسائد المزركشة ويقوم على خدمتهم - وان كنت أحس بخجل وأنا أقوه بذلك - عبيد من شعبنا ٠٠٠٠ عبيد لم يشاركوا ساداتهم تخنثهم ودلالهم ، اذ لم يكن لهم نصيب فيما ينغمسون فيه من ملاذ وترف . وفى تلك الحقبة ، أى منذ ألف عام فحسب ، ظهر الاله « زهاتوبولك » . لقد حسبه ، فى بادئ الأمر ، بعض الناس انسانا ليس الا ، وكان ذلك . كما نعلم ، ضلالا مبينا ، اذ نزل من قلب السماء واستقر فوق قمة جبل « كوتوباكسى » ورأته الألوف العديدة من بنى جنسنا ، ممن ألهمهم الوحي الالهى ، رؤية العيان وهو يهبط من العلا ، ومن ذلك الجبل المقدس تعطف بالنزول والخلول بين عابديه الذين سرعان ما تبينوا فى ملامحه صورة لالهم المجيد الذى كان يتقبل ولاءهم قبل مجيء « بيزارو » المخرب المرذول . وتأجج الحماس المقدس فى نفوسهم جميعا بطريقة معجزة فأخذوا الداعرين الصينيين على غرة وأبادوهم ، وفى الحروب الطاحنة التى اندلع ليهيها بعدئذ ، قادهم زهاتوبولك الى النصر بفضل نوع قاتل من فطريات كوتاباكسى التى لم يكن أحد يعرف خواصها حتى أعلنها لتابعيه ، وظل ثلاثين عاما بينهم غارقا فى الحرب أولا ثم فى فنون السلم ، التى هى أشق وأعوص ، بعد أن تحقق النصر الشامل . واليه

يرجع الفضل فى اقامة المنظمات التى نعيش اليوم فى كنفها ، وسيبقى « كتاب الناموس المقدس » ، مهما أضافت إليه الأجيال المتعاقبة ، أساساً لسياستنا . والويل كل الويل لمن يوحى بالتحول ولو قليلاً عن تلك الرسالة السماوية المقدسة .

الفصل الثانى

الحاضر

استغرق نظام الحكم الذى أقامه الاله « زهاتوبولك » فترة من الزمن حتى توطدت دعائمه . أما مبادئه فقد كانت على نحو من الرسوخ والحنكة السياسية بحيث لم تنتبها أية انحرافات جذرية خلال الألف سنة التى مضت على حلوله ، لقد انهارت الامبراطوريات السابقة جميعها ، كما علم زهاتوبولك ، من جراء الترف والنعومة . . . ترف فى المعيشة ورقة وسطحية فى التفكير . وهذا ما ينبغى على تابعيه أن يتجنبوه ، ومن ثم تحتم الامتثال لبعض القواعد دون اعتراض وتنفيذها بلا رحمة أو شفقة .

وأول ما أوصى به الاله تابعيه هو أن يذكروا دائماً سمو الجنس الأحمر على ما عداه من الأجناس ذات الألوان المتباينة . وأن لشعب بيرو السيادة على الحمر جميعاً ، يليه فى المرتبة أهل المكسيك . ومن المسموح به ، بل من المحمود ، أن يشاد بما كان للمايا القدماء من حكمة قبل أن يبدأ رجس البيض بتلوين نصف الكرة الغربى ، على أن يظل شرف المجد القديم من نصيب الانكا . وفوق منحدرات كوتوياكسى نبتت فطريات دقيقة سامة كانت دماء هنود بيرو النقية محصنة ضدها ، بينما نشرت الموت الزؤام بين ما عداه من الشعوب ، وبعد اختبار ما كان يجلبه ذلك الوباء من دمار دأبت بقية شعوب العالم لسلطان الانكا ، وبات التفكير فى التمرد أو الثورة عبر القرون أمراً غير محتمل الوقوع .

وأمكن الحفاظ على قوة الجنس الحاكم بفضل قواعد عديدة

وتنظيمات حكيمة ، لقد حظر عليهم أى لون من الترف ، فكانوا يرقدون فوق أسرة صلبة ذات وسائد خشبية ويرتدون ثيابا من الجلد ، مع الاعتبار أن حلة واحدة تكفى أى رجل أو امرأة من مرحلة النضوج حتى الوفاة . وكان الحمام البارد فى الطقس الجليدى ووسط ثلوج الجبال اجباريا بقوة القانون ، أما الطعام ، وإن كان صحيا وكافيا ، فقد روعيت فيه البساطة الا فى عيد الظهور السنوى ، وتحتم على كل مواطن فى بيرو أن يقوم بالتدريبات الرياضية العنيفة يوميا حفاظا على لياقته البدنية ، وحرم الخمر والتبغ على الطبقة الحاكمة وأن ألبسوا لرعاياهم . وأعلن الآله زهاتوبوك مالئ يكن معلوما من قبل ، وهو أن تناول البقول رجس يؤدى الى تلوث كرهيه ، فمن تناول البقول من بين البيرويين كان الموت عقابه حتى ان لم يتوفر لديه غذاء آخر ، ومن شهد تلك الفعلة الشنعاء خضع لعملية تطهير شاقة طويلة . كان ذلك قاصرا على شعب بيرو حيث أن دماء ماعداهم قد تلوث بالفعل ولا سبيل الى تطهيرها بحظر أو مع .

وكان التدريب على الخشونة يبدأ منذ الطفولة ولاسيما بين الذكور ، فوزعت ساعات الدراسة بين العلوم والألعاب الرياضية والمباريات الخشنة العنيفة ، وحرّم على الفتى أن يشكو من تعب ، أو برد ، أو جوع ، ولو حدث ذلك لكان من نصيبه الازدراء به كضعيف هزيل ولتعرض لاحتقار القائمين على أمره ولمعاملة اقاربه السيئة التى يستحقها . وكان ذلك النظام الصارم يودى بحياة من به ضعف جسمانى ، اذ ساد الاعتقاد أن من العبث تركهم على قيد الحياة ، فكانوا يلقون حتفهم منبذين غير مأسوف عليهم ، وإن بكاهم أبائهم فذلك فى الخفاء خشية أن يشاركوا أبناءهم خزيهم وعارهم .

أما التشدد فى تربية الفتيات ، فكان على نحو مغاير اعتقادا بأن النمو العضلى لا يساعد على انجاب الأنفال ، ولم يكن يسمح للفتاة أن ترضى شيئا من غرورها أو تكشف عن عواطفها فيما خلا التعبد الروحي والتكريس للانكا . وكانت تجبر على الطاعة المطلقة بأساليب عنيفة محددة ، ومع ذلك فإن عددا ضئيلا ممن أظهرن قدرة بدنية ملحوظة تمتعن بشيء من الحرية والمبادرة وإن لم يتعد ذلك حدود الأساليب التى تبيحها التقاليد .

أما نشاط النساء ، باستثناء القلة الضئيلة اللاتى اعتبرن فى شبابهن موهوبات بصورة فذة خارقة للعادة - فقد كان قاصرا على الأعمال

المنزلية ، ولم يعاملن على قدم المساواة مع الرجال ، اذ لم يكن ذوات نفع فى القتال مثلهم . حقا ، لم تنشعب معارك بعد الأعوام الأولى ، اذ صار البيرويون يعرفون بأنهم شعب لا يقهر ، وكان عليهم أن يتذكروا دائما - هكذا علمهم زهاتوبولك - انه لا حفاظ على امبراطوريتهم الا بالتفوق فى ميدان القوة ، وأن كل احساس كاذب بالامن والطمأنينة قد جلب الدمار على كل جنس سبق أن كانت له السيادة ، ولذا وجب على النساء أن يكن تابعات خاضعات ، وأن يمارس الأزواج فى الدار أساليب الأمر والنهى ألتى سوف يحتاجونها فى العالم الخارجى .

لقد روعى مبدأ عدم تعدد الزوجات بكل دقة ، ولم يسمح للرجال أو النساء بالانحراف عن سبيل الفضيلة ، ولم يكن الحب الاثم وحده هو الذى يثير السخط والاستياء ، بل كل ألوان الحب ، وكان الآباء يرتبون شئون الزواج ، أما اليتامى فكان الكهنة يتولون أمرهم . ولم نسمع قط أن رجلا أو سيدة تجاسرت على الاعتراض على هذه الأوضاع . فلم تكن المذات غاية الحياة بل أداء الواجب نحو الدولة ونحو زهاتوبولك المقدس . وفى حالات الخيانة الزوجية جد النادرة كان الطرف المذنب يلقى الهوان ويطرد من البلاد ليعيش كعضو من عشيرة غير بيروية .

ونادى زهاتوبولك بحتمية أن يظل البيرويون طبقة أرستقراطية حاكمة معتزة بنفسها ، وبألا يزيد عددهم بالسرعة التى يصبح معها الكثيرون منهم فقراء معوزين ، مع الاعتماد على موارد بيرو حيث أن السلطة ، وليست الثروة ، هى التى ينبغى أن تكون أساس تعاملهم مع العالم الخارجى . فما كان من مشرعهم الأقدس الا أن أصدر قرارا يقضى بأن ما يرزق به الوالدان من أبناء بعد الثلاثة الأول يؤكل بخشوع فى غضون شهر من ولادته ، ومن ثم يقيم الوالدان على براءتهما من هدف احداث عجز فى الموارد الغذائية كما أن ذلك رمزا لخضوعهما لزهاتوبولك كاله للخصب .

وكانت هناك طائفة مجدفة لم يكتب لها البقاء طويلا ، ضللتها الفلسفة الانسانية المهزوزة ، أثرت تحديد النسل على أكل الفانض من الأبناء ، فكان رد القائد الأقدس أن تحديد النسل خطية ضد هبة الحياة التى يمنحها الاله ، على حين أن أكل الطفل يحيل جسده جزءا من حياة الوالدين التى منها انبعثت حياته التى تظل دائما ممتزجة بها امتزاجا

خفيا ، ومن ثم بات أكل النوالدين لطفلهما اجراء دينيا عميق المغزى اذ هو تجسيم لاستمرار تيار الحياة ، كما أنه لاقى قبولا من الجميع بلا استثناء .

واذا كان شعب بيرو قد شكل عنصرا أرستقراطيا بالنسبة للسلاسل الأقل شأنًا ، فقد وجدت طبقة أرستقراطية بين البيرويين أنفسهم ، تقوم على الأصل والمقدرة فكان ينضم الى صفوفها أى فتى أو فتاة يكشف عن نبوغ حقيقى ، ومع ذلك جاء السواد الأعظم من أعضائها من سلالة القواد الذين قادوا قوات زهاتوبولك الى النصر فى حروبه العظيمة التى خاضها من أجل الحرية والفتوحات . وكان رجال الدين ، من ذوى السيطرة والنفوذ ، يختارون جميعا من بين هذه الطبقة التى كانت تنعم فى بعض مناحى الحياة بقدر من الحرية لم يحظ به سواهم ، فكان بوسعهم ، مثلا ، أن يضاجعوا زوجات عامة الشعب دون لومة لائم ، كما كانوا يستنون من القوانين الخاصة بالمأكل والملبس .

أما العقيدة الدينية فقد تبعت الى حد كبير ما كان سائدا فى بيرو والمكسيك قديما ، فارتبط زهاتوبولك فى الأذهان بالشمس ، وكانت أشعته المقدسة هى التى تهب النمو للنباتات ، كما كانت هنالك الهة تمثل القمر تحتل مرتبة أقل شأنًا فى العقيدة ، مع أنها كانت تضطلع بدور هام فى السنة الزهاتوبولكية ، اذ فى بدء بزوغ أول قمر بعد الانقلاب الشتائى وفى اللحظة التى يلوح فيها كان الشمس والقمر فى خطر من أن يفقدا فضائلهما المتعددة ، كانتا تستردان قوتيهما بفضل طقوس قديمة عندما يحل زهاتوبولك ، كاله للشمس ، لبرهة وجيزة فى الانكا الحاكم فى حين تتجسد الهة القمر فى عذراء يعرف الكهنة شخصيتها عن طريق بعض الرموز المقدسة . وتتحد الشمس ليمنح كل منهما الآخر حياة جديدة . كان الكهنة يقودون العذراء المختارة فى خشوع ووقار الى الانكا ، وبامتزاجه بها تسترد الشمس قوتها ، وتحقيقا للامتزاج التام كان الانكا يلتهم المرأة فى صبيحة اليوم التالى لأنها لم تعد تصلح للغاية التى كانت العذرية شرطا أساسيا لتحقيقها . وعقب أداء هذه الفريضة المقدسة اثر الانقلاب الشتوى مباشرة يحل عيد الظهور ، وكان يوم عطلة عامة يرفع فيه ، لبرهة وجيزة ، الكثير من قيود التقشف .

ولم يكن امتزاج الانكا السنوى « بعذراء العام » يتم لغير الأهداف الدينية بطبيعة الحال ، فقد كانت له زوج سوف يخلقه ابنها الأكبر . ولم

يكن بصفته الشخصية بل كممثل مؤقت لزهاتوبولك ، يضاجع السيدة التى كانت تكرم أثناء أداء تلك الفريضة ، كعروس لزهاتوبولك ومن كان يقع عليها الاختيار بين العذراء تحظى بأعظم تكريم ، ومن يتأهلها الشرف بين الأسر يعلو شأنها ، أما العروس نفسها فكانت تفيض غبطة وفرحاً رغم ما كان ينتظرها من موت محقق . وان أروع ما عرف من الشعر الغنائى ليس فى الواقع الا أناشيد النصر التى كتبت بلغة قديمة جافة تعبر عن فرحة العروس لمجرد التفكير فى أن المدة المقدسة ستبتلعها .

وحدث مرة إبان القرن الأول من هذا الحكم ، أن وقعت حادثة مشينة هزت السلطة الحاكمة من أساسها ، عندما نصب أحد الرجال « انكا » على البلاد فوقع فى غرام عروس زهاتوبولك وأبى ، فى عقود ، أن ينحرها ويأكلها ، وأبقاها على قيد الحياة ، وجعل يوافيها فى الخفاء ، فوقع ما كان فى الحساب ، ولم تسترد الشمس قوتها وباتت تشرق كل صباح متأخرة كعهدها فى فصل الشتاء . وأصيب الانكا المزعوم بالشيخوخة قبل الأوان ، فسقط شعره وأسنانه . وسادت الحيرة وعم اليأس المصحوب بالشكوك القائمة . وفى عيد الاعتدال الشمسى ، عيد الربيع الذى أقيم فى مواعده المعتاد برغم احتجاب الشمس طفق البرق يومض فى السماء الصافية فصرع الانكا المزعوم وأرداه قتيلاً . واتضح فيما بعد أن أمه كانت قد ارتكبت الفحشاء ولم يكن من حقه أن يرتقى العرش . لقد كانت بعض الشكوك تداعب أفكار فريق من المفكرين ، فما لبثت أن تبددت بالطبع نهائياً .

وكانت أراضى بيرو المقدسة تضم ما كان يعرف فى العصر الأسباني باكوادور وشيلى ، وحين تحررت تلك المنطقة ، اتخذ زهاياوبولك الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على نقاء الدم الهندى ، فاستئصل البيض والزنج ، وعقم المولودون . ومع ذلك أفلت بعض الذين لم يتكشف فيهم أثر الدم الأجنبى ، فكان يولد ، بين الفينة والفينة ، أطفال يحملون سمات البيض أو الزنج . وكان أطباء الدولة يقومون بفحص جميع الأطفال الحديثي المولد فان ظهر مثل هذا الأثر تحتم على الوالدين أكلهم وتعرضا بدورهما للتعقيم ، ولما كان النظام لا يزال حديث عهد ، كان هذا الاجراء المصارم كفيلاً بأن يثير السخط والاستياء . ومن ثم حامت الشبهات حول أمثال أولئك الوالدين وخضعوا لرقابة رجال الشرطة وما كادت تمضى مائتا عام حتى اختفى كل أثر للدم الأجنبى ولم يبق فى طول البلاد المقدسة وعرضها سوى الدم الهندى النقى .

وأنتهجت سياسة رسمية مغايرة فى خارج بيرو ، فكان شعب المكسيك يعامل على قدم المساواة تقريبا مع البيرويين ، فسمح لهم بتولى مناصب الجيش والحكومة ما خلا العليا منها وبشروط أن يكون دهمم نقيًا ، وكان التعليم العالى متاحا لهم ، بل كانوا يقبلون فى جامعة كورزكو . ولم يحظ ماعداهم من الهنود بامتيازات مماثلة ، وإن كان من المسلم به أنهم نالوا من المزايا ما هو جدير بالتقدير . أما البيض والصفير والسمر والسود فكانوا يعاملون كسلالات أدنى ويحاول المسئولون ، عن عمد ، الابقاء على حالتهم الدنيئة . حقا كانت هناك بعض الفوارق ، فقد كانوا يكرهون السود الذين لم يحدث أن قامت لهم امبراطورية ولكن دون أن يخشوهم ، أما البيض والصفير ممن كانت لهم امبراطوريات عالميية فكانوا مرهوبى الجانب ، وكان لا مناص من تدعيم ما يكرهه البيرويون لهم من ازدراء وكراهية .

كان التعليم محرما على كل من ليس هنديا ، وقضى على انجميع بلا استثناء ، بالعمل اليدوى عشر ساعات يوميا . وبينما كانت بلاد بيرو تحتفظ ببساطتها الريفية القديمة وتعزف ، فى حرص ، عن كل ما يفسد جمالها الطبيعى ، كانت بقية العالم تزخر بكل ما هو حديث فى ميدان الصناعة ، اعتقادا بأن المصانع والمناجم وأكوام عوادم المصانع والأزقة القذرة والدخان الأسود والقانورات انما تتفق وطبيعة البلاد الأجنبية . وآمن البيرويون – وجعلوا يلقنون للعالم بأسره – بأنهم أبناء الشمس وما عداهم من أجناس قد خلق من الطين . واستغلوا كل ما نادى به زهاتوبولك عن تأثير المذات الموهن للقوى فى الحط من شان الشعوب غير الهندية التى ما كانت تفرغ من عملها اليومى حتى تتعرض لكل أنواع الاغراء على شرب الخمر والانغماس فى تعاطى الأفيون فيفقدوا صوابهم ، ولم يكن الزواج بينهم مباحا بل الاختلاط العام . وحرم على الأطباء مقاومة الأمراض التناسلية التى انتشرت من جراء هذا الاختلاط ، وكان الموت عقابا للبيروى الذى تثبت عليه ثمة الاختلاط الجنسى مع من ينتمى لجنس أدنى . أما قوات بيرو التى تحتم وجودها لصون الأمن والنظام بين السكان المتبربرين فكانوا يحاطون بكثير من العناية لكيلا يتدنسوا بما يحيط بهم ، فكانوا يشجعون على مشاهدة سكان البلاد الأصليين وهم يتناولون البقول إذ كان هذا المشهد المقرز للنفس يثير حميتهم الوطنية الى أبعد حد . وكان من نتيجة الأمراض والافراط فى الشهوات أن أخذ سكان العالم غير الهندى ينقرضون رويدا رويدا ووفق بعض الحاليين يتكهنون بعالم تطهر من جميع الأجناس خلا الجنس

الأحمر في المستقبل البعيد ، عندئذ تتحقق بين الناس المساواة التي لا يسمح بها في الوقت الراهن . ومع ذلك كانت تلك الأحلام الممعة في الخيال ضربا من المخاطرة ، من أنغمس فيها نظر اليه بعين الريبة والشك . أما حكام البلاد الأجنبية ، فكانوا ينتخبون بحذر ودقة ، فقد دلت التجربة على أن من بطبيعتهم عنصر من عناصر القلق وعدم الاستقرار كانوا عرضة لمختلف أنواع الاضطرابات العصبية . لقد كان بعضهم يلجأ الى أساليب العنف مع المواطنين بلا مبرر ، كما يسعى البعض الآخر وهم الأشد اضطرابا ، الى أن يعقد معهم صدفات ويعاملهم على قدم المساواة ، كما وجدت شرذمة من الحكام أمنت بخوة البشر جميعا ، واكتشفت وثائق أثرية ترجع الى العصر الأغريقي - اليهودي تؤيد هذه النظرية المستهجنة . واقتضى الأمر أن يؤخذ أولئك الحكام بالشدّة والعنف وأن تعقد كلية التعليم في كوزكو دراسات من شأنها أن تدفع هذا الخطر ، وبمرور الزمن تضاعلت حدة هذا الخطر بفضل نجاح الأساليب التي انتهجتها الحكومة في حمل المواطنين على الانحطاط شيئا فشيئا حتى صاروا أشبه بالحيوانات . وهكذا غدت سيادة البيرويين بعد بضعة قرون راسخة لا تتزعزع .

الفصل الثالث

الثلاثي

استمرت محاضرات بروفيسور دريوزد ستادز طوال العام الدراسي وأثارت بين توماس وديوتيميا مناقشات حامية كان لصديقتها « فريا » فيها نصيب ضئيل ، وأخذت ديوتيميا تحس بتأثير المحاضرات من ناحية وقراءة التاريخ القديم من ناحية أخرى ، تحس بمعضلات أثارت دهشتها وبعثت الحيرة والقلق في نفسها . فلم تكن على يقين من أن أكل لحوم البشر أمر ضروري أو مرغوب فيه لقد أوضح بروفيسور دريوزد ستادز أن تشبيه العروس بالقمر ينبغي ألا يفهم حرفيا ، فما هو الا تشبيه رائع جميل . وفي صبيحة أحد الأيام راودت ديوتيميا فكرة رهينة وطفقت تتساءل : « ترى ، اذا كان الارتباط مجازيا لم لا يكون أكل

العروس كذلك ؛ ألا يمكن لتمثال من كعك الجنزبيل أن يقوم مقام العروس الحية ؛ وهنا أحست الدم يتجمد فى عروقها من جراء التفكير المشوب بالتجديف ، وارتعدت أوصالها وامتقع لونها - فتساءل توماس الذى كان يجلس الى جوارها ، فى دهشة عما جرى ! فأدركت ديوتيميا أنه ليس من الحكمة بمكان أن تبوح بما يجول بخاطرهما لأنه فكر عابر فحسب ، ولكن الوسواس راحت تترى ٠٠ وفى مكتبة الجامعة عثرت على كتاب قديم علاه التراب ، يلوح جليا أن يدا لم تمتد اليه منذ أمد بعيد ، كان الكتاب يحوى بين ضفتيه أعمق تأملات العصور المظلمة التى سبقت ظهور زهاثوبولك المقدس ، وارتاعت إذ كانت ضاربة فى القدم ، فقد سبق بعضها يزوغ فجر الفلسفة الاغريقية - اليهودية ٠ لقد عثرت على نظرية تقضى ألا يقصر المرء عطفه على بنى جنسه بل ينبغى أن يتعداه الى سائر أجناس البشر ٠ كما اكتشفت أن فى الزمن الغابر كان الناس من غير الجنس الآخر تملكهم أفكار ويفهمون بكلمات لا تقل حكمة وعمقا عنها فى عصر زهاثوبولك ٠ وبدأت تتساءل عما اذا كانت وحشية البيض والسمر - كما تعلمت - تعزى الى دناة متأصلة فى طبيعتهم أم أنها نتاج التنظيمات التى خلقتها السياسة البيروقراطية فحسب ٠ ولم تفصح كثيرا عن تلك الشكوك التى ساورتها لكن بعضها تكشف من خلال حديثها الحذر ٠

لقد أقلقت حالتها الفكرية بال توماس الذى بلغ إعجابه بها حدا أقام معه وزنا لكل كلمة تنساب من بين شففتيها - ومهما يكن مقدار ما تسببه له من انزعاج ، فلم يكن فى مقدوره أن يبعد شكوكها المبهمة الغامضة كما يدفع عنه ما يساور زميلا آخر ، لكن برغم ما استبد به من القلق فقد ظل أيمانه راسخا ، ظنا منه أنه لولا النظام الصارم للعقيدة الزهاثوبولكية لانهار المجتمع وعمت الفوضى ٠ كان يخشى أن تفقد الحضارة خير ما فيها اذا اندلعت نيران الحرب الشاملة بالصورة التى تراوده ٠ فمأذا ، ياترى ، يكون مصير العلم والفن ؟ وما الذى ينتظر الحياة العائلية المستقرة ؟ وهل من وسيلة تقي من الدمار الشامل الذى تسفر عنه المعارك التى تجتاح العالم بين الشيع المتطاحنة ؟ فتلك المخاوف جميعها ، كما تبدت له ، لم يحل دونها غير الاستقرار الراسخ للعقيدة التقليدية ٠٠٠ فلو تغلغل الشك فى أدنى تصدع لانهار المصرح بأسره وخيم على العالم ظلام ثقافى دامس وانحدر الناس فى كل مكان الى درجة من الانحطاط كتلك التى عليها أخط الشعوب الخاضعة حاليا ٠ كانت فرائضه ترتجف وترتعد من مثل هذه

الآفكار كلما كشفت ديوتيميا - وأن حدث ذلك للحظات وجيزة وعن غير قصد - عن أرائها الجديدة العارضة .

ودأب يقول : « حذار يا ديوتيميا ! انك تبدئين رحلة ذهنية خطيرة . . . رحلة لا تؤدي إلا الى هوة سحيقة معتمة سوف تبتلعك ما لم تقفلى راجعة . ولست أبغي أن أراك تسيرين على هذا الدرب وحيدة لكن لا سبيل الى مرافقتك وإن كنت أحبك حبا جما » .

كانت فريا تشهد أحيانا تلك المناقشات ، وإن تعذر عليها تقدير خطورتها ، وكانت تعتز بديوتيميا ، التى كانت ترتبط بها منذ الطفولة بذكريات عديدة مشتركة . أما توماس ، الابن النابه لأب نابغة ، الذى كان يرجى - وهو أمل راود الجميع بلا استثناء - أن يحمل رسالة الثقافة الزهاتوبولكية التليدة ، فقد حظى ، ولا غرو ، بتبجيل تلك الفتاة التى كانت تقدر كل ما هو ثابت راسخ البنيان . ومع ذلك كانت أقل اضطرابا مما كان ينبغي أن تبدو عليه ، إذ كانت تقضى جل وقتها فى هيام صوفى أشبه ما يكون بحلم ، وكل ما لم يتفق مع هذه الحال بدا لها وكأنه ضرب من سوء الفهم ، وعندما كانت ديوتيميا تفوه بما يلوح هداما ، تبسمت فريا وقالت بلطف « انك ، بالطبع ، يا عزيزتى لا تعنين ما تقولين » . ولم تكن ديوتيميا ترى من اللائق أو الممكن أن تعكر صفو معتقدات فريا ، فتظاهرت بالاذعان كما لو كانت منهمكة فى تسلية فكرية ليس الا .

كانت أسرة ديوتيميا تنتمى الى أعرق الطبقات الأرستقراطية فى بيرو وأرفعها شأنًا ، وقد تولى أحد أسلافها قيادة أكبر جيوش زهاتوبولك فى حرب التحرير ، وظلوا عن جدارة يتبوأون تلك المكانة المرموقة عبر قرون متعاقبة ، كما اختيرت عروس الشمس من أسرهم مرات عديدة ، وكانت صور تلك العرائس تطوق دائما بجداول الرياح الخضراء الناضرة وتحمل مكان الصدارة فى قاعة طعام الأسرة . أما قصرهم المنيف فاتخذ مكانه فى أرقى أحياء كوزكو بحديقته الغناء التى كانت أزهارها المختلفة تملأ جانب التل المنحدر بالروائح العطرة ، وتزينه بألوانها البديعة .

وكانت أسرة فريا بدورها أرستقراطية وإن لم تكن على هذا الشاؤ من العظمة ، أما توماس فقد تسنى له أن يندمج فى تلك الأوساط الراقية بفضل ما ينعم به أبوه المرموق من عقل راجح وما يؤديه من خدمات جليلة . ولعل موقف الأسر العريقة من أمثاله كان ينطوى على كل شئ من

المجاملة ، لكن الحكومة كانت تعترف بأن استقرار نظام الحكم يتطلب خدمات أفضل العقول المفكرة بلا انقطاع . وأجرت السياسة بأنه لا غبار فى التقبل الاجتماعى لأولئك الذين ارتقوا على هذا النحو سلم الطبقات الاجتماعية . فلم يكن مثارا للدهشة اذن - عندما ذكرت ديوتيميا لوالديها صديقيها توماس وفريا - أن أصرا على دعوتها ليفحصاهما ويحكمما عليهما بمقتضى المقاييس الحكيمة التى طورتهما أجيال من السيادة . وقلما أنصحت ديوتيميا لوالديها عن أفكارها الدفينة ، لكنهما استنفا منها جموحا فكريا رثيا له كل الرثاء . وبدا أن من عانتها الذميمة أن تدع الجد يقرر النتيجة بدلا من أن تحدد النتيجة أولا ثم تطوع المناقشات حتى تتواءم معها . وشعر الوالدان بأن هذا الانجاد انما ينطوى على الفوضى والخطورة ، لكن رغم ما كان يقلقهما من تأملاتها الجامحة (التى كانت فى الواقع أشد جموحا مما كانا يعلمان) كانا يعتقدان أنها مجرد حماس شباب متأجج سوف يخمد القليل من اختبار العالم الواقعى . وطابت نفسيهما بصداقتها لفريا التى شهد لها كثير من الأصدقاء المعروفين بالتقوى المثالية . وأحيانا كان الأسى يستبد بهما ، اذ لم تكن ابنتهما تشبه هذه القديسة التى لا تثير المتاعب لأحد ، بيد أن شهادة المعلمين لقدرات ديوتيميا العظيمة ورغبتها الملحة فى الدرس والتحصيل خففت من حدة مخاوفهما ، وأحسنا بأن الزمن كفيل بأن يكشف لها أن الذكاء ليس كل شئ ، كما سيزودها بذلك الحماس الاخلاقى الذى يبدى أنها تفتقر اليه فى الوقت الراهن . وكان توماس ، تعزز سمعة أبيه الطيبة وسجله الخاص الحافل، عين الصديق الذى يمتنياه لابنتهما . وكل ما كانا يأخذانه عليه هو اشتهاه بالذكاء اللامع ، اذ لم يكون يعتقدان أن ابنتهما فى حاجة الى تطوير فكرها . لكن من كن ما عرفاد عن توماس فان ذكاءه لم يمض به الى أبعد مما ذهب اليه أبوه ، وأديبها كل ما يدعوهما الى الأمل فى أن يكون عامل استقرار للنظام الاجتماعى كعهدهما بأبيه العظيم . تلك هى الاعتبارات التى حدث بأمر ديوتيميا الى دعوة فريا وتوماس لتناول الشاى على مائدتها .

كانت أم ديوتيميا ، كمضيعة ، جوادا تتوق الى أن يكون ضيفاهما على سجيتهما ، وان تعذر عليها التخلص من مظهر العظمة الذى بعث الرهبة فى نفسيهما فى بادئ الأمر ، فكان حديثها معبرا وأحاسيسها صادقة ، ولم تغفل قواعد اللغة وسلامة الألفاظ ، وأى رأى ينحرف ، ولو قيد أنملة ، عن جادة الصواب لم يقلت ، على الأقل ، من لوم تعبر عنه برفع حاجبيها . أما ديوتيميا فلم تقم وزنا يذكر لمحرمت أمها

الاجتماعية ، فكان حديثها طلقا بحيث جاءت بعض كلماته من البراعة
بمكان ، بينما اصطبغ البعض الآخر بالعامية ، وكانت تطلق العنان
لسرعة بديتها فكانت تجود فى بعض الأحيان بما هو مستهجن ، وتارة
تسخر بالبارزين من أصدقاء أبيها •

قالت أمها : « انك ، يا عزيزتى ، لن تحصلى على زوج مدمت
تستخدمين مثل هذه العبارات المستهجنة ولا تبدين الاحترام اللائق بمن
يكبرونك سنا » • ولما بدا لها أن ديوتىما تحسن الظن بتوماس وحداها
الأمل الى أن يحد من جرأة ابنتها المفرطة استدارت نحوه قائلة : « اننى
على يقين يا توماس من أن بروفيسور دريوزدستادز لا يقبل هذا التصرف ،
أليس كذلك ؟ » •

وأحس توماس بحرج شديد لا يطاق ، فقد كان متفقا بينه وبين نفسه
مع مضيفته ، بيد أن الوفاء لم يدعه يتخلى عن ديوتىما ، فتدخلت فريا
لإنقاذ الموقف وطفقت تهيم بجمال المكان •

قالت : « يا للسعادة التى تنعمون بها حين تجلسون فى هذه الحديقة
الغناء تتأملون تلك الثلوج الخالدة وتدركون أن مملكتنا المقدسة
سرمدية سامية كتلك القمم الشماء ! » •

وشاركتها أم ديوتىما تلك المشاعر وان ساورها الشك فى أنه من
دواعى الذوق السليم أن تعرب عنها ، فلا غبار على حماسها ، لكن ينبغى
أن يظل دائما فى حدود الآداب واللباقة ، وبينما كانت تتردد فيما عسى
أن تكون عليه الاستجابة الملائمة لهراء فريا ، اندفعت ديوتىما تقول :
« هيا ! هيا ! يا فريا ، فالقمم ليست بخالدة لأننا نعلم من الجيولوجيا أنها
تكونت بفعل هزات أرضية عنيفة ، بل وسوف تدكها يوما هزة عنيفة
أخرى • ألا تخشين أن يكون فى مقارنة النظام الزهاتوبولكى بتلك الكتل
الصماء الشامقة ضرب من التجديف ؟ » •

كان صدق تلك العبارة صحتا أليما حاول توماس أن يخفف من
وطأته إذ قال : « آه ، ان ديوتىما تستثيرنا فحسب ، وأخشى أن مزاحها
يذهب مع خيالها بعيدا فى بعض الأحيان » •

فقالت أمها : « حسنا ، أرى ألا تقسو عليها كثيرا ، انى أذكر كيف
كان أبوها العزيز ، الذى بلغ الآن كل ما أتمناه من رصانة واتزان .

يضايقتنى فى فجر حياتنا ، بالثرثرة حول البارزين من الجيل السابق ،
وسوف تتعلم شأنها فى ذلك شأننا جميعا » •

وبتلك الملاحظة التى خففت من حدة الموقف انفضت الجماعة •

وما أن وجد الشك له مقرا فى أفكار ديوتيميا حتى أخذت الاكتشافات
العديدة تثبته وتؤكدده ، فان الكتاب الأثرى الذى وقع بين يديها زودهما
برغبة فى البحث فى أجزاء من مكتبة الجامعة قديمة تراكم فوقها الغبار
على نحو حال دون ارتيادها ، وفى أحد هذه الجوانب عثرت على رواية
معاصرة عن الانكا الشرير الذى تخلى عن واجبه فى التهام العروس
المقدسة ، واستبان لها أنه كان للانكا فى ذلك الحين مشايعون عديدين
راحوا يؤكدون أن عجز الشمس فى أن تسترد قوتها لم يكن الا ظاهريا ،
وأن الكهنة هم الذين أوحوا بتأخير الساعات العامة نهارا وبتقديمها
ليلا فبدت كما لو أن النهار لم يطل والليل لم يقصر ، واعتقدوا أن سقوط
شعر الانكا وأسنانه لم يكن الا بفعل سم بطيء ، وأن البرق لم يرده قتيلا
بل ومضة انبعثت من عمودين كهربائيين يحملان شحنة عالية • وكان من
الطبعي أن يقاوم خليفته ذلك الفريق من المشايعين ويقضى عليهم بعنف
بالغ • وتبينت ديوتيميا أنه قد استخدم ضدهم الاضطهاد والقمع لا الحجة
والاقتناع •

ولقد وجهت الى ايمانها المترنح ضربة أخرى ، بغير وعى ، من أحد
أعمامها الذى كان يشغل منصبا مرموقا فى حاشية الانكا • فذات يوم
أصيب هذا الرجل بمرض عضال ، وفى هذيانه فأه بأمر كثيرة حسنها
من سمعوها هلوسة مجنونة ، أما لديوتيميا – التى كان من واجبها أن
تقوم بتمريضه أحيانا – فقد بدت أوهامه المحمومة وكأنها تنطوى على
عين الحقيقة •

كان ينفجر ضاحكا ثم يقول : « ها ، ها ، يخال الناس أن الكهنة هم
الذين يختارون العروس المقدسة ، وكم يفجعون لو تبينوا أن خصيان
الحاشية هم الذين ينتقونها كأفضل فتاة تشبع شهوات الانكا ونزواته ! » •

وكان خصيان الحاشية فريقا من الرجال ، وظيفتهم الرسمية ترتب
الترانيم القديمة للشمس فى المعبد الفخم ، مركز عقيدة زهاتوبولك ،
فكانت أصواتهم الحلوة التى تسلب الألباب تملأ السامعين جميعهم بما

كانوا يحسبونه الروح المقدس • وبينما هم ينصتون فى خشوع كانت قلوبهم ترتفع نحو السماء ويلوح وكأنهم يبلغون درجة من التجلى والاتحاد مع الاله • وكم كان مريعا أن يتصور المرء أولئك الرجال قوادين يرتدون قناع الدين الخادع • لكن ما حمل ديوتيميا على هذا الاعتقاد هو هذان عمها المضطرب •

وولد هذان الكشفان عن الاحتيال باسم الدين – أحدهما وقع منذ زمن طويل ، والآخر يتكرر عاما بعد آخر الى هذا اليوم – فى ديوتيميا نفورا شديدا ، وان لم تظهر منه ، فى الوقت الراهن ، سوى النزر اليسير ، فكانت فى حديثها مع توماس تحتفظ لنفسها بأخطر أفكارها يحدوها الأمل فى أن تقوده برفق رويدا رويدا الى الاقتناع بأسلوب تفكيرها ، ادراكا منها بأن أية صدمة سابقة لأرائها قد تنفره منها • لقد كانت فريا برغم جمالها الأخاذ أشد غباء وتفاهة من أن تحرك فى توماس مشاعر عميقة ، أما ديوتيميا فقد وجدها جذابه مثيرة حقا لكنها مخيفة فى الوقت ذاته ، كان يحس معها بنشوة من يتسلق قمة جبل ثلجى منحدر خطير • فلم يكن قادرا على الابتعاد عنها أو الانعاز لها أو هجرها الى غير رجعة •••

الفصل الرابع

فريا

كان الثلاثة يجلسون ذات يوم بجانب مجرى جبلى غارقين فى نقاش عبيق ، وإذا ببصر ديوتيميا يقع على رجلين يختلسان النظر اليهم من خلف الأشجار تبينت من زيهما ، أنهما من خصيان الحاشية • كان أحدهما يشير الى فريا والآخر يومئ برأسه فى حزن وكآبة • ولم ير رفيقاها ذلك المشهد الذى بدا مغزاه واضحا فى ضوء ما أماط اللثام عنه عمها ، وسرعان ما امتقع لونها وقالت فى صوت خفيض : « فلنعد الى المدينة » • فتساءل الآخران : « ماذا دهاك ؟ » • ولما بلغوا مكانا آمنا راحت توضح لهما أنها تعلم أن فريا ستكون العروس المقبلة

لزهاتوبولك • فسألاها : « وكيف علمت ذلك ؟ » فأجابت : « ذلك حالاً
أستطيع توضيحه الآن ، لكنكما ستتيبان أنى على صواب » •

ولم يمض وقت طويل حتى أعلن على الملأ اختيار فريا • فغمرتها
الفرحة العارمة واختبرت كل ألوان المشاعر التي كانت تنسب ، أيام
الفلسفة الاغريقية اليهودية ، للسيدة العذراء فى عيد البشارة ، وارتجت
ديوتيميا واهتز كيائها ، ولم تحل العقيدة الدينية دون الاحساس بأن
صديقة عمرها ستقاسى من مصير رهيب ، أما توماس فكان يدرك ،
بالطبع ، أن مشاعر ديوتيميا ليست ما يتطلبه الايمان الصحيح ، ولم يتفقد
أنها محقة فى ذلك ، غير أنه لم يقو على احتمال ما يولده التفكير فى أنها
مخطئة من ألم • وغمرت الغبطة والذى فريا ، كما هو منتظر ، بنون
اسرتهم هذا الشرف العظيم • وطفقت أم ديوتيميا تهنئها لصدقتها بفريا
وتتباهى بهذه الصداقة أمام كل زائريها ، وما أن مضت أيام معدودة على
الاعلان حتى أبعدت فريا عن الأمور الدنيوية وخضعت لعملية التطهير
والتقديس الطويلة التى تسبق زفافها ، فبكتها ديوتيميا • وعبثاً حاول
توماس أن يغتبط بما أسبغ عليها من شرف ، وبذلت ديوتيميا ، التى
ما برح الأمل يحدوها الى تغيير توماس كلية ، قصارى جهدها حتى
لا تؤدى خلافاتها الى القطيعة ، وظلت الأمور بينهما على ما هى من شك
وترقب طيلة أشهر اعداد فريا •

وبتأثير النظام الذى طوره الخصيان المقدسون شيئاً فشيئاً عبر
القرون حتى بلغ مرحلة الكمال ، انغمست فريا رويدا رويدا فى هيام
روحى ، وعاملها الخصيان القائمون على أمرها كما لو كانت كائناً الهيا
فاتوا لها بالثياب الفاخرة التى لم تكن ترتديها غير عرائس زهاتوبولك
عند تزيينها ، كما كانوا يقودونها كل صباح ، وعند بزوغ الشمس تماماً ،
لتسبح فى نبع مقدس كان من يدنو منه غير عرائس زهاتوبولك يصيبه
الموت المحقق • وفى معبد مرصع بالجواهر تتلألأ جدرانها بحجارة
الفسيفساء التى تصور حياة زهاتوبولك الأرضية ، راحت تصفى الى
الترانيم المقدسة التى كان الخصيان يرتلون بها بأصوات طابعها النقاء
الروحى ، كما كانت تغتذى طعاماً خاصاً مغايراً لما يتناوله العاديون
من الرجال والنساء ، وتزود بدواوين الشعر القديم الذى يتغنى بغيطة
القمر وهو فى أحضان الشمس ، وبصور لزهاتوبولك وعروسه فى
احتضان عاطفى مقدس • وفى عالم الأسطورة القديمة والطقوس كادت
نكريات حياتها اليومية السابقة تختفى ، فكانت تتحرك وتتفلسف وكأنها فى
حلم ، ولاح لها أن روح الالهة تمتلكها شيئاً فشيئاً ويوما بعد يوم •

وأخيرا حلت الليلة العظيمة ، فارتدت ثوبا أزرق براقا تزينه نجوم
لا حصر لها ولا عدد ، وأمسكت بيدها شعلة ملتهبة وأخذت تهبط بهبط
السلم المقدس المفضى الى الانكا المترقب ، وفى طريقها اليه انطلقت ترقن
ترنيمه ضاربة فى القدم ، عنوبتها تأخذ بالألباب • ولما فرغت من المقطع
الأخير كانت قد بلغت نهاية السلم فألقت أمامها الانكا الذى طال انتظاره •

ومع أن الانكا كان رجلا ذا شفيتين غليظتين وأنف مفلطح وعيدين
أشبه بعينى خنزير غائرتين فى شحم ، فقد بدا لناظريها كائنا مقدسا
جديرا بأن يحل فيه زهاتوبولك • وأمسك بها فى عنف ، وهو يقول : «والآن
هيا انزعى هذا الرداء ، فلا تتركينى أنتظر طوال الليل » • وأحست بأنه
هكذا يسلك الاله ورحبت بالفرصة التى فيها تتواضع أمامه ، وما أن
فرغ من أداء الفريضة حتى أخذته سنة من النوم وراح يغط بينما مضت
هى تتأمل فى خشوع هيئته وهو فى سبات عميق • وعند منتصف الليل
فتح الكهنة فى هدوء تام بابا سريرا وأوماوا لها فتبعتهن على مهل ، وهى
نشوى ، الى حيث تلقى حتفها •

واستقظ الانكا فى الوقت المعين وهبط لتناول افطاره ، وعند أول
قضمة جعل يتمتم : « حسنا ! لقد طهوها على نحو أفضل هذا العام على
أية حال ! » •

الفصل الخامس

ديوتيمما

بعد أن اقتادوا فريا الى التآليه والموت تغيرت حال ديوتيمما ، ففاضت
نكاء ومرحا وأدبت التسلية الفكرية ، وانطلقت تتابع أية محاوردة
أو جدل ، مهمة بالمنطق أكثر منها بالاعتبارات الاجتماعية ، ومع ذلك
باتت تحت وطأة تأثير فقدان فريا تضيق ذرها بما تمخض عن المعتقدات
الكاذبة من آثار اجتماعية • ولم تعد تصدق كلمة واحدة عن العقيدة
الرسمية ، وأدركت بوضوح وجلاء أن زهاتوبولك لم يكن سوى انسان

عائى ، وأن عقيدته عن سيادة شعب بيرو ما هى الا تجسيم للغرور
القومى . وسرعان ما بدت لها الطقوس المرتبطة بالانقلاب الشتوى
سخيفة قاسية وأحست أن فريا لم تقدم قربانا لاله بل راحت ضحية اشباع
شهوات وحش كاسر . بيد أن الثورة ضد نظام هكذا تأصلت جذوره ،
لم يكن بالأمر الهين . فظل نشاطها فترة من الزمن قاصرا على المناقشات
السرية وكلما اكتملت الثورة فى أفكرها ، زادت قدرتها على قمع
مظاهرها الخارجية ، فحدا توماس الذى كان يهرب ثورتها ، الأمل فى
أنها قد أخذت تهدا ولما كان يحاورها ضد بذور الشك الأولى التى كانت
تكشف عنافى بادىء الأمر لم تكن تفند آراءه ، فتوهم أنه قد أقنعها ورأت
أنه يحبها وكان بوسعها أن تبادله الغرام لولا احساسها المتزايد بأنها قد
كرست نفسها لمهمة على قدر مروع من الصعوبة ، ذلك الاحساس الذى
حملها على أن تعيش فى عزلة وحال دون ادعائها بكل قلبها لأية عاطفة
نحو انسان مجرد ، وشعر توماس بكبريائها الذى كان مبعث ضيق و ألم
لنفسه . لكن سرعان ما أتى اليوم الذى قررت فيه أنها لم تعد قادرة على
أن تخفى عنه آراءها التى ملكت عليها كيانها

وفى فجر أحد الأيام كان توماس وديوتىما يسيران معا فى أحد اودية
« الأنديز » العميقة وتحت أقدامها جمال أزهار الربيع الوفيرة الدفىء
ومن فوقهما القمم الثلجية الشامخة تشق عنان السماء الزرقاء . وكان
الظل لا يزال يكسو معظم أجزاء الوادى ، لكن أشعة الشمس المشرفة
الباهرة للبصار ، راحت تتسلل بين ظلال الجبال فبدت ملامح ديوتىما
الصلوة الدقيقة لتوماس كأنه تجمع بين الجمال الدافىء من أسفل
والسمو الرائع من أعلى ، واتحد منظر الطبيعة مع جمال المرأة ليولدا
فى نفسه شعورا كاد يفوق النشوة والهيام . واشتعل الحب فى قلبه نارا ، فكبح
جماحه بما هو أقوى من الحب بالرهبة والدمشقة والاحترام ،
وأدرك ما يمكن أن يكون عليه الانسان ، وبدت كلمات الحب المألوفة عاجزة
عن أن تعبر عما يجيش بصدرة ، فسار لبرهة فى صمت واجف ، ثم
استدار نحوها وقال : « لقد بدأت أدرك فى هذه اللحظة كيف يعيش المرء
حياته » .

فقالت : « أجل ! ينبغى أن تكون ناعمة جميلة كالزهور ، راسخة
شامخة كقمم الجبال ، عميقة وبلا حدود كالسماء . هكذا يمكن أن
تكون الحياة . لكن ليس وسط ما يسود مجتمعنا من بشاعة وفظاظة » .

فصاح توماس : « بشاعة وفضاظة ! ماذا تعنين ؟ » .

قالت : « ثمة بشاعة حين يسمح لجرد انسان أن يرتكب الموبقات ، اعتقادا بأنه اله » .

وما أن تناهت هذه الكلمات الى سمع توماس ارتجف وطار ليه وراح يتساءل : « مجرد انسان عادى ؟ اذك . بالطبع لا تقصدين الاله زمايوبولك » .

فقالت : « هذا ما أعنيه ، فما هو بآله . فالأسطورة التى تعظمه وترفعه الى مصاف الآلهة هى وليدة الخوف : الخوف من الموت ، ومن ضربات القدر ، ومن قوى الطبيعة ، ومن طغيان الانسان واستبداده . فمن تلك القمم التى فوقنا يتحدر الموت الخاطف الى الوديان تحتها من حين لآخر ، فيتملك الناس الاحساس بأن القوى التى تحكم فى القمم قاسية عنيفة ولا يمكن اخماد حقدما الرهيب بغير قسوة طابعها العطف . بيد أن الخوف يشتى ألوانه دفىء ، والأساطير التى تتمخض عنه حقيرة ، وسن تعظمهم الأساطير من الرجال أدنياء . فزها توبولك ليس لها ، بل انسانا أخرق وأحط من الحيوانات الضارية فى شتى المناحي . والفريضة التى قدمت فريا بمقتضاها قربانا ليست من مصدر الهى ، بل وليس ثمة ماهى من مصدر الهى . فما الآلهة سوى ظلال لمخاوفنا فوق عتمة الليل ، أنها تجسد ضعف الانسان أمام القوى التى بوسعها أن تجهز عليه ، كما أنها تجسم الاستعباد للزمن فيتعذر تقدير اللحظة الأبدية ما دامت فى نظامنا الدنيوى لحظة فحسب . اننى لن أذعن للاذلال ، وما دمت على قيد الحياة سأقف شامخة كالمجبل ، فان أدركتنى البلية ، وهى آتية ولا ريب ، فلن تكون سوى مأساة ظاهرية ، وستبقى قلعة ايمانى بما يمكن أن يحدث فى المستقبل » راسخة لا تقهر » .

بدا توماس ، وهى تتحدث ، كأن صراعا رهيبا يمزقه الى شطرين ، شطر الهيته كلماتها وتمنى لو وافقها ، وهو الجانب الذى كان يبدو منذ هنيهة مرتبطا بها فى وحدة سامية تجل عن الوصف ، لكن جانبا آخر ، بنفس القوة ان لم يققه ، كان يقف لها بالمرصاد ، فكل ما تعلمه ما عرفه عن المجتمع الذى يعيشان فيه ، وكل مشاعر الرهبة والجلال التى غرست فى نفسه منذ نعومة أظفاره هبت تناهضها ، كما ملأه العالم الجامد الملحد الذى راحت ترسمه برعب بالغ . وأحس بأن لها ، قد يكون قاسيا

لكنه ليس بغريب علينا تماما مادام قد جرب مشاعرنا ومر بتجاربنا ،
لهو افضل من عالم فسيح لاحياة فيه يخاق ويبيد دون تفكير . وبلا
اكتراث ببنى الانسان الذين خلقهم عنا غير ذى قصد ، وسوف
يهلكهم بلا ندم . كان هذا الرعب المريع الذى استولى على توماس فى
الوقت الراهن يفوق حبه لديوتيميا فاستدار نحوها ، وقد شحب لونه
وارتعدت فرائصه ، وقال : « حاشائى أن أرحب بعالمك ، فأنا لا أقوى
على الحياة مع أفكارك فلا أستطيع أن أذكى لهيب الحماس الانسانى
المتراقص وسط هذا التيار الجارف البارد من القسوة غير المحدودة ،
فان كانت غايته تدمير عقيدة آبائى تحتم على كل منا أن يسلك سبيله » .

وسار الاثنان على مهل ، يخيم عليهما الصمت ، حتى بلغا الدار
الوحيدة بالوادي حيث وجدا خصيان الانكا فى الانتظار . فابتدروا
ديوتيميا بقولهم : « لقد وقع الاختيار عليك » وحملوها بعيدا . وراح
توماس يحملق ببصره خلفها حتى غابت عن الأنظار . لكنه لم ينبس ببنت
شفة ولم يبد حراكا . وأبلغ اختيار ديوتيميا كعروس العام رسميا لوالديها
ولبروفسور ديريوزدسادز ، لتبرير سبب انقطاعها عن الدراسة . وتمشيا
مع عادة ضارية فى القدم ، أقام والداها حفلا مهيبا بمناسبة ما ، سبغ
على ابنتهما من مجد وشرف . وجاء الى الحفل على القوم فى كوزكر ،
يحملون هدايا الزفاف ويلقون كلمات التهنئة . فتقبلت أمها الهدايا
والخطب بتواضع جم ظاهري ، واحتفظ أبوها ، وقد وقف منتصب القامة
بهى الطلعة ، بطابعه العسكرى حيث وارى غبطته بلباقة . ولاقى الحفل
نجاحا منقطع النظير ، وأحست أسرة ديوتيميا بأنها أضحت أكثر مجدا
ورفعة عن ذى قبل .

وأحس البروفسور أن حظا من مجد تلميذته ديوتيميا قد ناله ،
ولامراء فى أن الهة القمر قد لاحظت أن ديوتيميا أصبحت جديرة بأن تكون
أداة لتجسدها بفضل تأثيره ، وطفق يهنئ ابنه على صداقته للعروس
المجدة . لكن شيئا من القلق والاضطراب تسرب الى نفسه حين لم
يبد جذلا بالقدر الذى تمليه المناسبة ، غير أنه فى بادئ الأمر أخذ
يطيب خاطره بالقول أن الشعور بشيء من الأسى لفقدان رفقة ديوتيميا
قد يغتفر لشباب كتوماس ، وان يكن ذلك مفعجا للاحساس الصادق
الذى لا غبار عليه .

لكن ما أن مضت أيام معدودة حتى انطلقت الشائعات المرعبة تنتشر
بين الناس ، وسرى همس بأن ديوتيميا لم تقبل الشرف بنفس راضية ،

وأنها ترفض المقيام بواجبها فى طقوس التطهير ، وتنكر أى أدراك من جانبها لحلول اله القمر فى جسدها ، كما تقذف فى حق الانكا ، بل تعتقد - وبالعار ! - أن الشمس والقمر سيمضيان فى طريقهما المألوف بدون اقامة شعائر هذا العيد .

وا أسفاه ! لقد كان لتلك الشائعات أساس كبير من الصحة واستيد الفزع بالكهنة والخصيان حيث لم يقع شىء مماثل منذ أمد بعيد عندما عزف الانكا المزيف عن أكل العروس . وفى حيرتهم رأوا مجازاة الظروف وأخفوا عن الانكا تمرد ديوتيا ، وقرروا استخدام كل ما يمكن من الضغط أملا فى ثنيها عن عزمها وحملها على الانعان والانصياع . ولتحقيق هذا الهدف راحوا يدبرون سلسلة من اللقاءات مع من ظنهم أقدر الأشخاص على اقناعها .

كانت أولى تلك اللقاءات مع أمها ، التى كانت تبتسم بالزهو والغرسة ، وتلوح رابطة الجاش رزينة قادرة على التحكم فى مشاعرها . أما الآن فقد تبدل ذلك كله وأحست بكل مهانة وانلال . لم تقو على مواجهة العالم ، ولم تجسر على مقابلة أصدقائها خوفا من النقد أو - وهو الأسوأ - من الرثاء لحالها . لقد ألفت ابنتها فى زناينة مكشوفة ترتدى ثوب التفكير وتعيش على الخبز والماء ، وراحت تتضمن بكلمات الحزن والتفريع المتقطعة وهى ترتجف من النحيب والدموع المنهمرة فوق وجنتيها .

قالت : « أواه يا ديوتيا ! كيف توقعين بأبيك وأمك هذا الخزي المزرى الرهيب ؟ ألا تذكرين سننى طفولتك البرئية حين كنت تنمين ، بفضل رعايتى ، جسما وعقلا وتسمين بأمألنا المعقودة على مستقبلك يوما فيوما ؟ ألا تعطفين على الأسرة الأبية التى ظلت عدة قرون تحمل لواء التاريخ فى هذه البلاد العظيمة ؟ وهل يهون عليك أن توقعى بمن أحبوك أبشع مصير يحل بانسان . . . أعنى العار الذى تجلبه علينا ابنة لا غبار عليها ؟ آه يا ديوتيا ، اننى لا أستطيع حمل نفسى على تصديق ما تنأهى الى سمعى . . . قولى انه حلم آثم عابر ، فيظل حبى لك كعهديك به من قبل . . » وهنا خنق النحيب صوتها فلم تفه بكلمة أخرى .

أما ديوتيا فظلت رابطة الجاش حتى فرغت أمها من حديثها المتقطع ، ثم أجابت بكبرياء وفتور ظاهرى : « إن الأمر يا أماه ، لينطوى على ما هو أعظم من حب الوالدين وأرفع من شرف الأسرة ، بل وأسمى

من هذه الدولة التى ظلت راسخة زهاء ألف عام ، لأن هذه الدولة المتعطسة - وان كنت أعلم أنه يتعذر عليك التسليم بالحقيقة - قد قامت على الأكاذيب وأعمال العنف والموبقات . ولا يمكن أن يكون لى فى هذه الأمور ضلع . وان غدوت وكن دموعك لا تحرك لى ساكنا ، فانما ذلك ليس عن فتور بل لأنه تشتعل فى أعماقى نار أخرى أعظم مما يطوف بخيالك . انه يتعذر عليك فهم ما أقول أو قبوله ، لكنى أضرع اليك أن تنسى أنك ابتليت بمثل هذه الالبثة » .

وفى حال من القنوط واليأس المطلق ، تحولت عنها أمها وتركتهما وحيدة .

وبعد أن فشلت أمها جاءوا فى اليوم القالى بأبيها الى زنازنتها . وكان أسلوبه . مغائرا بعض الشيء لما اتبعته معها أمها .

وابتدرها بالقول : هيا ! هيا ! لم تبدين فتاة حمقاء عديدة ؟ اننى أخالك مضطربة ان تعلمت قبل الأوان وبسرعة فائقة أمورا قد عرفناها وسلمنا بها منذ أمد بعيد ، نحن الذين نعيش بالقرب من الحاشية . اتظنين أن العقلاء يصدقون كل ما يتردد عن الشمس والقمر من هراء ، أو تتصورين أن الانكا الذى نعرفه جميعا ونمقته يصير الها مرة كل عام حسب التقويم ؟ نحن نعلم علم اليقين أنه ما من مشاعر دينية تلهم أبان ما تسمى « بالليلة المقدسة » ، بيد أننا لا نقيم الأرض ونقعدها كما تهديدين أن تفعلنى ، ادراكا منا بأن تلك المعتقدات وان لم يكن لها أساس من الصحة ، تخدم مصلحة الدولة . ان تحمل على احترام الحكومة وتعيننا على صون الأمن فى الداخل وفى الامبراطورية فى الخارج . ترى ، ماذا تخالين سيحدث لو طفق الشعب بأسره يفكر على غرارك ؟ حتما ستقع الاضرابات فى بيرو ، وستندلع نيران الثورات فى الخارج ، وسرعان ما يتصدع صرح المجتمع المتحضر بأكمله . يالك من فتاة طائشة ، ان ترفضين أن تكونى قربانا للانكا ولم تدركى أن القربان الحقيقى هو لحفظ القانون والنظام واستقرار المجتمع ، وليس لأمير أخرق فظ ، انك تهذين بالحق ، فكيف للحق أن يصون امبراطورية ؟ ألم يلقنك البروفسور أن الامبراطوريات جميعا وفى كل الأزمنة قد قامت على أكاذيب نافعة ؟ أخشى أن تكونى من دعاة الفوضى ، ولا تأملى فى رخصة الدولة بك مالم ترجعى عن غيك » .

فأجابت : « أبى ، أخاله أمرا طبيعيا ، فى ضوء دالأسرتنا من تقاليد ، أن تتخذ من دولة بيرو الها لك • كما أن التفكير فى نظام آخر للمجتمع خلاف الذى قضيت فيه حياتك كلها يتطلب خيالا خصبا • وأخشى . يا أبى ، أنك لا تؤمن بالخيال • اننى أرى فى أفكارى عالما أفضل من ذلك الذى خلقه جنسنا •• عالما أكثر عدلا وأعظم رحمة وأقوى حبا ، وفوق ذلك ، أشد تمسكا بالحق • ولعل الهزات العنيفة والاضطرابات الخطيرة كامنة فى الطريق الى هذا العالم الأفضل ، ولكن حتى هذه ينبغى أن تكون مفضلة على بشاعة ما نرتكبه فى الجهر والسر من فزق ورجس » •

وهنا استشاط أبوها غضبا وصرخ فيها بصوت مجلجل : « اننى أدعك لمصيرك أيتها الابنة العاقبة الوقحة » ، ودلف الى الخارج حيث الشمس المشرقة • كان البروفسور هو التالى فى زيارة السجينة العنيدة ، فدخل زنزانتها ، وكان يبدو دمثا رقيق الفؤاد ، وراح يخاطبها بلهجة حجت رغبته فى اقناعها ما تقسم به من سلطان وقال : « ابنتى المسكينة ! يؤسفنى أن أراك فى هذا المكان ، ولا يسعنى الا أن أعتقد أن جانبيا من اللوم يقع على ، إذ كان ينبغى فى غضون العام الذى استمعت فيه لمحاضرات التفقيه التى ألقيتها على مسامعكم ، أن أفلح فى أن أنقل اليك فكرة عن الواجب الاجتماعى أكثر استقامة من تلك التى تدل عليها ورطتك الراهنة • لكن حدثنى يا ديوتيميا عن العوامل والأسباب التى حدث بك الى الخروج على المبادئ التى وكل الى شخصى الضعيف محاولة تلقيها ؟ » •

فأجاب : « حسنا ، مادمت تسألنى فساخبرك • اننى لا أومن بحقائقك ، ولا أصدق نظرياتك ، وأعتقد أن مفهومك للنفع الاجتماعى ضيق وايمانك بثبات العقيدة وعدم قابليتها للتغير جامد بالقدر الذى يقتل العقل والمشاعر سواء بسواء ، أرى أن لامبالتك بالحقيقة ترمد ، وانصياعك للسلطان تملق ينم عن حقارة وخسة • الآن وقد أوضحت لك الحقيقة هاأنذا مستعدة لأن أسمع رأيك » •

وما أن تنامت هذه العبارات الجافة الى سمعه حتى حمى غضبه وانتابته لبرمة رغبة فى أن يقابل الاساءة بمثلها ، لكنه رأى فى ذلك منافاة لمبادئه • لقد كانت صريحة ، وأنحت جانبيا الغموض والابهام على نحو لا يشعر معه بأسف بالغ • وقنعت بأن تقيم فى مناطق الحق المجرد التى

ما هي الا مراقى المبتدئين الى قمم الحكمة الشامخة ، وراح يحدث نفسه ، وقد كظم غيظه بمشقة ، أن الفتاة بادية الاعياء وأن غذاءها المكون من خبز وماء يثير سخطها ، فأسعدته خبرة العمر كمحاضر فرد على هجومها العنيف ردا يثير الاعجاب اذا قورن بعظمته وحدثتها •

قال : « يلوح يا ديوتيميا » أن ثمة أمورا لا تلمين بها ، وهي ما ينبغي حتى في هذه الآونة الأخيرة - أن نضعها أمامك بكل ما أوتيت من قوة ، وسأبدأ بما هو أساس لما عداه • هل تنكرين ألوهية زهاتوبوك المقدس ؟ » •

فأجابت : « أجل •• لقد تعلمنا أنه نزل من السماء بمعجزة ، لكنني اعتقد أنه هبط في هليكويتز من طائرة كانت تخبىء فوق السحاب ، قيل لنا انه لم يمت وقد صعد بأعجوبة الى السماء حين أتم رسالته على الأرض ، وهذا أيضاً مالا أصدقه ، فأنا أؤمن بأن زمرة خاصة من قواده أحاطت به أثناء مرضه الأخير وحالت دون اتصاله بالعالم الخارجى ، ولما وافته المنية ألقوا بجثته فى فوهة بركان كوتوباكسى • ان الأساطير التى تميط اللثام عن هذه الحقيقة قد تناقلتها الأجيال سرا فى أسرتى التى كان سلفها الأكبر أحد القادة الذين اضطلعوا بتلك المهمة • لقد أقسم الجميع على السرية ولم يبرحوا بهذا السر لغير الرجال ، بيد أن الرجال يصابون بالحمى ، والحمى تجلب الهذيان ، وفى الهذيان تفشى أخطر الأسرار » •

وعندئذ اعتقد البروفسور أن الأمر يقتضى محاضرة عن الحق ، فانطلق يقول : « دعينا ، يا فتاتى العزيزة ، نسلم بأنه حسب المستوى الدنيوى للحقيقة المنطقية كانت الأمور كما تقولين ، ألا تدركين أن هناك معنى أسمى ، به تعلن عقيدة بلادنا القويمة حقا أعرق من أية أسطورة عن الهليكويتز والجماعة السرية العسكرية ؟ فما علاقة طائرات الهليكويتز بالألوهية ؟ انها مجرد اختراعات حاذقة ، ولا ريب ، مريحة ولا غرو ، لكنها ليست جديرة بأن تتبوا مكانة رئيسية فى المبادئ الجوهرية التى تقوم عليها نظرية تكوين العالم • ولو حدث حقا أن رأى مؤسس عقيدتنا الأقدس أن يستخدم بعض هذه الأجهزة فان ذلك ، ولا ريب فيه ، كان لهدف سام ليس لنا أن نشك فيه البته • واذا كنت تنكرين أنه نزل من السماء ، فهل أنت واثقة من أنك تعرفين أين توجد السماء ؟ ألم تتعلمي الحقيقة الروحية العظيمة القائلة بأن السماء توجد حيثما تكون الأفكار

نسماوية ؟ وليكن فى يقينك أنه حيثما حل زهاتوبولك تكون الأفكار السماوية . أما عن موته فبوسعنا أن نورد حججا مماثلة . فماذا يحدث لو أن الهيكل الأرضى صار جامدا بلا حياة ؟ وأى غضاضة فى أن يعيده أحباره الى النار الأرضية التى هى أقرب الأشياء فى هذه الدنيا الى النار الانهية التى مكنته من تعليم تلاميذه ؟ ونحن لا نتعبد للهيكل الأرضى ، مالهنا يعبد بالروح والحق ، والروح والحق يسكنان النفس لا الجسد . فالكلمات الهوجاء التى تتفوهين بها عن أسمى اله قد تختلف ، بالمعنى الضيق الساذج ، عن الحقيقة المادية ، لكنها من السناحية الروحية كما أوضحت لك وبالمعنى الوحيد الذى يعيننا ككائنات شريكة ، وإن يكن ذلك بغير كمال ، فى الجوهر الالهى ، فهى باطلة تماما ولا بد من حذوها بازدياء بكل ما تلهما اياه عقيدتنا المقدسة من قوة » .

وهنا أجابت الفتاة : « ان لقولك ، يا بروفيسور ، وقعه البالغ على النفس ، لكنى توصلت الى رأى قد يبدو لك رهيبا . انى أعتقد أن شمة حقائق وأوهاما ، كما أن هناك صدقا وهناك أكاذيب . وأعلم أن الذين ينادون بنظرية الاعتدال - التى أظنك أحد أتباعها - يرون أنه ينبغى على المرء أن يراعى الاعتدال بين الحق والزيف كما راعيته ببراءة فى حديثك الذى استمعت اليه لتوى ، بيد أن الحقائق ، فى رأى ، مرة ولا سبيل الى انكارها . أدرك أنه بفجور وحشى تمتع الانكا المصاب بالسادية^(١) بصديقتى فريا ثم التهمها . هذه حقيقة . ومهما حاولت أن تلبس الحقيقة رداء الضباب والابهام فستبقى حقيقة ، وطالما حاولت اخفاءها عن بصرك فانك تشترك فى خستها كما أنها سوف تفسدك » .

قال البروفيسور : « هيا ! هيا ! هذا أسلوب عنيف ، كما أنى لا أعتقد أنك درست النظرية الفلسفية للحقيقة بالعمق الذى يقتضيه واجب الأكاديمى . ألا تدرين أن حقيقة العقيدة تكمن فى نفعها الاجتماعى وعمقها الروحى ، وليس فى الدقة البشعة الدنيئة كتلك التى يمكن أن تقاس بمسطرة وضعت فى يدى أخرق ؟ وكم تبدو أحاسيسك نحو صديقتك « فريا » تافهة حقيرة لو قيست بمقياس صادق ، فكم كان هيامها فى لحظات تأليهها عميقا وأشد اتفاقا مع حاجات الجنس البشرى . تأملنى فيما نالته فى غصون دقائى معدودة - وهذا ما ترفضين فى غطرستك بعض مظاهره - اتحدث بالالهة القمر ، وانطلقت روحها الخالدة فى سلام دائم وجمال خالد تهيم فى أجواء الفضاء العليا وقد تحررت

(١) حب تذيب الضمير .

من أحزان الحياة الفانية وخطوبها ، فكرى فيما تدين به البشرية لتلك
الفريضة المقدسة التى أنهت حياتها الأرضية ، وتأملى الشعر والموسيقى
الخفيفة الأخاذة وأحجار الفسيفساء العجيبة والمعبد بتقاسيمه وروعته . .
هذه كلها تجذب العين والنفس على حد سواء الى السماء . . أفتريدون
زوال كل هذا من الدنيا ؟ أتبعين أن تنحط البشرية الى جماعة من الحفاة
القذرين المعدمين ؟ وهل تقبلين فناء الشعر والموسيقى وفن العمارة ؟
ومع ذلك كيف يمكن لفن من تلك الفنون أن يظل قائما بدون الأسطورة
الالهية (اننى أستخدم العبارات بمعناها السامى) التى أوحى بها ؟ »

واذا كان الفن والجمال لا يعينان لديك شيئا فماذا عن البنیان
الاجتماعى ؟ وماذا عن القانون والأخلاق والحكومة ؟ أظنن أنه يمكن
أن تقوم لهذه قائمة ؟ وهل تحسبن أن الناس يعزفون عن القتل والسرقة
بل وارتكاب الفحشاء مع غير البيرويات اذا هم لم يشعروا بأن عين
زهاتويوك ترافهم ؟ ألا ترين أن تعاليم عقيدتنا المقدسة حق مادام الحق
ما هو نافع اجتماعيا ؟ اننى أضرع اليك أن تقلعى عن كبريائك وعنادك
وأن تخضعى نفسك لحكمة الأجيال ، وبذلك تضعين حدا لما تجلبينه
على والديك ومعلميك وأصدقائك من خزي وألم . »

فصاحت ديوتيميا : « كلا ! كلا ! وألف كلا ! فهذا الحق السامى
الذى تتحدث عنه ما هو الا خداع سام ، وذلك المنفع الاجتماعى الذى
تغالى فى وصفه كثيرا هو مجرد الرغبة فى الحفاظ على امتياز جائر .
وتلك الأخلاق الرائعة التى تتشدد بها ليست سوى تبرير لقمع السواد
الأعظم من الجنس البشرى وإذلاله . لقد انفتحت عيناي ولا يمكن
لكلماتك الملتوية أن تحملنى على اغلاقهما ثانية » .

وصاح البروفسور ، بعد أن أشتد غضبه فى النهاية ، وقال : اذن
فلتهلكى فى غطرسك وعنادك أيتها المارقة التعسة اننى أتركك لقضائك
الذى تستحقينه بحق » . وما لبث أن تحول عنها ومضى .

ولم يبق بعد ذلك سوى احتمال واحد لحمل ديوتيميا على التوبة
والندم . ولما كان معروفا أن توماس يحبها ، فقد راودهم الأمل فى أن
تبادلها الغرام ، وفى أن الحب قد ينتج فيما فشل فيه النفوذ والسلطان ،
وتقرر أن يلتقى بها توماس ، فان باء مسعاه بالفشل قلن فتلح أية محاولة
فى ردها عن غيها . . .

وكان توماس يمر بفترة عصبية من الصراخ والخوف والبؤس ،
فككل رجل يحب كان يعانى من ضياع أمانيه ، وكشباب طموح بدأ طريقه

الى النجاح ممهدا • كان يخشى أن تحوم حوله الشبهات لصداقته الوثيقة بمارقة ، وكباحث فى اللاهوت و التاريخ لم ير مبررا للشك فى حكمة أبيه ، هاله ماقد يتمخض عن انتشار معتقدات ديوتيميا من نتائج خطيرة • فمئذ الحادها رأى أن الكثيرين من أصدقائه السابقين أخذوا يتحاشونه ، وأدرك أنه قد بدأ يفقد مركزه القيادى وسط فريقه ، وما أن عاد أبوه غاضبا من زيارته لديوتيميا حتى جعل يخاطبه بحدة بالغة :

وقال له : توماس ، ان روحا شريرة تحرك ديوتيميا لم أعرها اهتماما كافيا فى دراساتى اللاهوتية ، ومنتها تنبعث أراء خطيرة أشبه ما تكون بلهب مكفهر مندلعة من نار كبريتية • ولست أدري مدى تأثير هذا السم على عقلك • أرجو ، اكراما لخاطري ، ألا يكون التأثير كبيرا ، وإذا أردت أن تسترد احترام الجميع الذى كان يثلج قلبى الأبوى ، فما عليك الا أن تكون واضحا جليا ، وأن تعلن على الملأ أنك تناهض بشدة هرطقتها الشريرة ، وأنه مامن رواسب حب يمكن أن توهن رغبتك المتأججة فى أن تراها تأخذ العقاب العادل لفجورها ، ومع ذلك ما انفك ثمة بصيص أمل ، ولعلك تنجح فيما فشل والداها وأنا ، فلو أفلحت سارت الأمور على ما يرام ، وان باء مسعاك بالفشل بات لزاما عليك أن تبرهن بحماسك على أنك لم تتلوث بأفكارها •

وألقي توماس نفسه فى زنزانة ديوتيميا ولا يزال صدى كلمات التحذير هذه يطن فى أذنيه ، ووقف برهة مشدوها أمام جمالها ورباطة جأشها • وفى بادئ الأمر بدد حبه لها وشوقه العارم الى انقاذها ما يتسم به من حكمة ورسوخ عقيدة ، فانفجر باكيا وأخذت دموعه تنهمر من عينيه وهو يصيح : « أواه ، يا ديوتيميا ، ليتنى أستطيع انقاذك ! » •

فأجابت : « عزيزى توماس ، كيف تتمسك بمثل هذا الأمل الأخرق ؟ مهما فعلت فان حياتى ضائعة لا محالة ، سواء قضيت نحبي كعروس لزمها توبولك بشرف ظاهر وخزى خفى أم لقيت حتفى كمجرمة مذبذبة ومحتقرة من الجميع خلا ضميرى •

فاستطرد يقول : « ضميرك ! كيف تنصيبه حكما أوجد ضد كل هذه الحكمة والأجيال العديدة المتعاقبة ؟ وكيف تكونين على هذا القدر من اليقين يا ديوتيميا ؟ ومن أدراك أننا جميعا مخطئون ؟ ألا تكنين أى احترام لأبى ؟ وهل تقبلين تلويث شرف أجدادك ؟ لقد أحببتك ...

وودت لو أنك بادلتنى الحب ، لكنى أرى أن هذا الأمل قد خاب ، وكم
يؤلنى القول أنى لا أستطيع الاستمرار فى حبك وأنت تمزقين أعماق
مشاعرى ، فذلك أكثر مما أحتمل ياديو تيما ! » .

فقالت : « كم أنا آسفة إذ جعلتك فى هذا المأزق الخطير . كان
لديك قبل اليوم . من الأسباب ما يحملك على أن تأمل فى حياة ناعمة
كريمة ، لكن من الآن فصاعدا عليك أن تختار . فان أدنتنى فقد تطل
حياتك سهلة ميسورة ، وان لم تفعل فربما كان ذلك أشرف وانبل
لكنى أعلم - حتى وان أخفيت هذه الحقيقة عن نفسك - أنك لن تشمر
فى أعماقك بسعادة لو أنك أدنتنى وأنحيت على بلائمة . لعلك استطعت
أثناء ساعات انشغالك أن تخرس شكوكك وأنت تصغى الى ثناء
الناس . لكن حين يرخى الليل سدوله ستشهد رؤيا أشير اليك فيها
نحو عالم أسعد ، وما ان تولينى ظهره حتى تستيقظ حزينا مهموما
لانى أعلم أنك قد رأيت . وان يكن فى سرعة خاطفة ، تلك الرؤيا التى
من أجلها أدان راضية . فليست الشمس والقمر ، كما نزع ، هما اللذان
يوحيان بعقيدتنا الرسمية . بل الزهو والخوف : زهو بامبراطوريتنا
وخوف من ضياعها . فلا ينبغى أن تبني الحياة البشرية على تلك
العواطف بل على الحق والمحبة ، حياة يجب أن نحياها بلا خوف وفى
سعادة ينعم بها الجميع . ولا يمكن أن تستمد الرضى من اذلال الغير
بل تخجل أن يكون هدفها حماية تافهة للجسد على حساب الينابيع
الداخلية للفرح والحيوية التى تفيض فى أولئك الذين يكشفون للعالم
عما يعمل فى نفوسهم فى مخاطرة جريئة بأسلة . لقد كبنا أنفسنا
بالأغلال . ففى خارج بلادنا فرضنا القيود على الضحايا . ولم ندرك
أن من يسجن غيره يصبح سجيناً . سجين الخوف والبغض . فالأغلال
التي قيدنا بها الآخرين قد قيدتنا فى سجن فكرى مطبق . تذكر الشمس
التي وجدت طريقها الى وادينا ، ولابد أن يشرق النور فى بقاع العالم
المظلمة . وسوف تكون رسالتك فى الحياة بعد قضاء نحبي هى مواصلة
تلك المهمة ، وان كنت لا تدري عن ذلك شيئا يذكر » .

أحدثت كلماتها صدى فى قلبه لبرمة وجيزة ما لبث بعدها أن استجمع
قواه وانقلب اذعانه المؤقت الى ثورة غضب عارمة وصاح : « كيف
تجربئين على مثل هذا التفكير ، وكيف تخالين أنك تستطيعين بعباراتك
الطنانة حملى على نبذ ما أقدم . لا جدوى من الماضى فى الحديث

معك ، وحرى بك أن تنقى حثفك ، أما أنا فينبغى أن أعيش كى أقاوم
الشّر الذى تحسبينه خيرا » • وبهذه الكلمات اندفع خارجا من زنزانتها •

ولما فشل توماس فى مهمته ، فقد المسؤولون الأمل فى حمل ديوتىما
على التوبة والندم ، فانتخبت عروس جديدة ، وحكم على ديوتىما بالموت
العلى فى اللحظة التى تنعم فيها العروس بوحدة روحية مع الاله •

وأعلن يوم اعدامها عطلة رسمية ، وأقيمت الأوتاد فى ميدان المدينة
الرئيسى وفى الصفوف الأمامية أعدت مقاعد النبلاء وعلية القوم ،
ووقف خلفهم سكان المدينة بأسرها يتحرقون شوقا ولهفة وقد راحوا
يمرحون ويمزحون ويتهكمين وهم يأكلون الجوز والبرتقال ، ويطلقون
نكات سميحة ، ويهللون ترقبا للتعذيب الذى كانوا على وشك أن
يشاهدوه • أما الأشراف الذين اتخذوا أماكنهم فى الصفوف الأمامية
فكانوا أكثر اتزاناً ، كما لاذ الانكا فوق عرشه بالصمت فى جلال
ووقار • أما توماس ، كابن لأبيه ، فقد نال شرف الجلوس بين الأشراف •
لقد حامت حوله الشبهات ظناً بأنه يشارك ديوتىما هرطقتها ، الا انه
برأ نفسه من هذا الاتهام بحماس وقوة • وكمكافأة له وكاختبار فى الوقت
نفسه ، تحتم عليه أن يجلس حيث يشهد مصرعها بوضوح تام •

وجاءوا بها عارية البدن ، لكنها ظلت رابطة الجأش هادئة النفس .
وانطلق الجمهور يردد : « ما هى المرأة الشريرة ! سترين الآن من هو
الاله ! » • ثم أوثقوها بالأوتاد وأشعلوا النيران بشعلات ملتهبة .
وما أن بلغت ألسنة اللهب حتى رمت توماس بنظرة ••• نظرة غريبة
خارقة تعبر عن ألم ورثاء وضراعة فى آن واحد ، رثاء لضعفه وضراعة
كى يحمل رسالتها من بعدما •• لقد مزق ألمها أحشائه ، وسحق رثاؤها
رجولته ، وأشعلت ضراعتها فى عقله لهيباً لا يقل ضراوة عن ذلك الذى
يحرق عودها • وفى لحظة رهيبية أدرك أنه كان مخطئاً وأن ما تتعرض
له رجس ودنس ، كما أدرك أنها قد نذرت نفسها لما قد يكون رائعا فى
حياة البشر وأن الأشراف ومن خلفهم من جماهير الشعب كانوا كذلك
ضحايا الخوف الدفين • وفى اللحظة الرهيبة أحس بالندم والتوبة ••••

لكن التوبة لفظ لا يعبر عما اختبر ، فلقد اختبر ذلك الاحساس العميق
القوى الذى حملها على أن تقف مرفوعة الرأس فى قلب النار المندلعة •••
احساس بتكريس نفسه للعمل الذى لم يتسن لها تكملته ، وبرغبة فى

تحرير البشرية من أغلال الخوف وما يتولد عنه من قسوة وعنف .
وتراءى له أنه صرخ من أعماقه قائلا : « ديوتيميا ، أنا لك ، لكنه فى
تلك اللحظة سقط مغشيا عليه ، وكانت الصيحة ولا ريب ، قد ترددت فى
أعماقه فحسب !

الفصل السادس

توماس

ظل توماس طريق الخراش بأحدى المستشفيات زمنا طويلا يعانى
مرضا عضالا أعجزه عن التفكير المترابط ، وطافت بخياله أحلام بغیضه
اليمة اختلطت فيها نساء معذبات ، ورجال متوحشون ، ونيران ،
وموت . وصرخات النصر المدوية التى تنم عن قسوة ووحشية .
وأخذ عقله يؤكد وجوده زويدا زويدا ، وما لبثت أن عادت اليه صحته ،
ومع الصحة استرجع عزيمة راسخة لا تلين سرعان ما خلقت منسه
شخصية جديدة ، فلم يعد الشاب الرقيق المتواكل ، القانع بأن يقتفى أثر
أبيه فيقر عينا - مثله - بنجاح بخس حقير ٠٠٠ ويفكر ثاقب منبثق
من عاطفة متأججة فطن الى كل ما انطوى عليه النظام البيروى من
مزاعم ، وأدرك الدوافع الدنيئة التى أملتها ودعمتها . أما عقله الذى
دأب على العمل باتقان تام فى نطاق الحدود التى فرضتها العقيدة فقد
تخطى تلك الحدود دون أن يفقد ذرة من دقته واتزانه ، فلم يتحرر عقله
وحده بل قلبه أيضا ٠٠٠ وكان البيرويون قد تعلموا أن يقدسوا الدولة
باعتبارها رداء الله الأرضى ، وأن يقصروا عطفهم على أولئك الذين
يخدمون الدولة بكل ما أوتوا من قوة ، بيد أن الدولة هى التى أطاحت
بديوتيميا . وفى غمرة ثورته على تلك الوحشية ، اذا هو يعلنها حربا
عوانا على جميع ألوان العنف والقسوة الأخرى ، وعلى ضروب النظم
التي تكبل العطف الانسانى بالقيود لا فى بلاده فحسب بل أينما حل بنو
الانسان . ويفعل نار عواطفه المتأججة امتزج الحب والحقد والعقل معا
فى وحدة صلبة لا تلين ٠٠٠ حب لديوتيميا أولا ، ثم لغيرها من الضحايا ،

وحقد على الذين قضوا بموتها ، ومن ثم على النظام بأكمله الذى تسبب فى هذا القتل ، وعقل يحدثه بأن ألوهية زهايوبولك ضرب من الأساطير ، وأن الشمس والقمر ليسا الهين بل كتلتين جامدتين لا حياة فيهما • كما أن تحريم تحديد النسل خرافة ، والتهام الناس لأبنائهم انما يقتل فى نفوسهم القدرة على العطف والحنان • وعقد العزم بكل عقله وفؤاده وارادته على الا يقيم على الأرض ، لو استطاع الى ذلك سبيلا ، نظاما أفضل من ذاك الذى تعلم أن يحترمه ويقدسه ، نظاما أكثر اتساقا مع ما كانت ديوتيميا تحلم به وتتمناه • وحسب أن الشعور بالذنب الذى ينخر فى أعماقه لا يمكن أن تخمد له جذوة ما لم يتسن له أن يقدم تلك التضحية تخليدا لذكرى ديوتيميا المؤلة المضنية •

ولكن لى يهدأ ندمه وتبكيته ضميره ، لابد للقربان الذى يقدمه لذكراه أن يكون تغييرا للعالم كله وليس مجرد اخلاص شخصى أو استشهاد لا طائل من ورائه • ويتصميم أكيد متوقد فى أعماقه ، وإن بدا فى الظاهر باردا كالثلج ، راح أولا يرسم خطته ، ثم يخرج بها الى حيز التنفيذ ، ولم يفه بكلمة ضد النظام القائم فى الجهر ولا مع من لا يثق بهم ثقة مطلقة ، وكان يبدو فى نظر أبيه وكل انسان آخر تقريبا ، وقد تطهر من كل ما كان يشوبه ذات يوم من شكوك ، فسرعان ما تبددت تلك الظنون التى حامت حوله فى الأيام الأخيرة لديوتيميا وصارت حياته الرسمية هادئة تنتقل من نجاح الى نجاح ، فتولى منصبا قياديا بين أقرانه ، كما كانت كلماته تشنف الأذان لما تنطوى عليه من حكمة ورسالة •

وكان أشد أصدقائه حمسا له وأعجبا بأرائه شابا يدعى « بول » وفى ساعة متأخرة من احدى ليالى الصيف ، فتح قلبه لبول بحذر فى بادئ الأمر ، وما أن وجد منه استجابة حتى راح يفرغ ما بجعبته شيئا فشيئا كانت الشكوك تساور بول حول حرق ديوتيميا ، وكان من الحكمة بحيث كتم الأمر فى نفسه ، فجاءت كلمات توماس لتؤكد شكوكه ، وطفق الاثنان يتحادثان طوال ليلة الصيف حتى بزغ الفجر ، ثم افترقا بعد أن تعاهدا على انكاء نار أية ثورة يندلع لهيبتها ، واستطاعا تكوين جمعية سرية تضم من عقدوا العزم على الثورة من بين طلبة العلوم الذين تعذر عليهم التسليم بألوهية الشمس والقمر ، ودارسى التاريخ ممن لم يؤمنوا بانحطاط الأجناس الأخرى ، وطلاب علم النفس الذين ثاروا ضد عادة أكل الأبناء التى تقتل الحب الأبوى • وأخذت الروايات حول مسلك الانكا الذى لا يمت بصلة لأى تصرف الهى ، تتسرب من دوائر الحاشية رغم ما اتخذ من

احتياطات أمن مشددة • ومع ذلك ظل توماس بعيدا عن هذه التيارات • وفى الخفاء راح يشجع أكفأ تلاميذه على القيام بالبحوث التى حظرتها الحكومة وجعلت الموت عقابا لمن يضطلع بها • ولما كانت قوة بيرو تستند الى فطريات كوتوباكسى القاتلة ، فقد اكتشف طبيب نابيه علاجا واقيا من الوباء ، كما أصبح الكثيرون من حلفاء توماس حكاما لأقاليم نائية ، تلك المناصب التى لم تكن مرغوبا فيها لبعدها عن بيرو وكانت فى العادة توكل الى الشبان كخطوة أولى فى هرم الترقى الرسمى • وانطلق هؤلاء الرجال بحذر وفى سرية ، يتخلون عن سياسة ازدياء الغير التى دأبت بيرو على انتهاجها فى بقاع العالم الأخرى • وصار بول ، الذى أصبح الرجل الثانى لتوماس . حاكما لاقليم « كيلمنجارو » حيث كان متسلقوا الجبال فى تلك المنطقة على ما هم عليه من جرأة وعنف . اذ طبعوا على الخششونة والجفاء • فقرب اليه زعماءهم وولد فى نفوسهم ، لأول مرة منذ أجيال عديدة ، الأمل فى النجاة من ربقة الاستعمار البغيض ، وظل الكثيرون من المتأمرين يقولون فى بيرو مناصب رئيسية دون أن تحوم حولهم الشبهات •

وأخيرا ، وبعد عشرين عاما من التدبير المقرون بالحيلة والحذر ، قرر توماس أن الوقت قد حان للعمل السافر ، ورسمت خطة دقيقة لما سيقع من أحداث ، فأعلن ، وكان آنذاك يشغل منصب مدير الجامعة ، أنه سيميط اللثام فى اليوم الذى حدده عن حقيقة مثيرة وطلب الى جميع أنصاره - باستثناء من أوكلت اليهم مهام خاصة - الحضور فى القاعة التى سوف يلقي فيها خطابه ، واعتلى المنصة كما فعل أبوه من قبل • بب أن كلماته كانت مغايرة تماما هذه المرة . اذ جاهر بكل ما يؤمن وما لا يؤمن به ، ولدهشة من لم يكونوا مشتركين فى الخطة لقيت أشد آرائه الهدامة تصفيقا حادا ، وخيم الرعب والحيرة على المكان ، لكن السلطات أفلحت كما كان متوقعا ، فى أن تلقى القبض عليه وتحكم عليه بالموت كديوتيمًا ، حرقا فى اللهب التى تشعل فى عيد الظهور •

وما حدث بعد ذلك لم يكن فى حسيان الحكومة . فقد اكتشف واحد من أصدقائه كيف يصنع المطر ، وحال طوفان الماء دون اشتعال النيران التى كانت ستلتهمه • وحين علم صديقه بول بالساعة المحددة لتنفيذ الاعدام ، استقل طائرة ضخمة من مقر رئاسة الحكومة فى « كيلمنجارو » وانطلقت تطير بسرعة الصوت حتى بلغت سحب المطر المخيمة فى سماء « كوزكو » • ثم هبطت منها طائرة هليكوبتر فى الميدان واخذت تطفئ توماس الذى نقل الى كيلمنجارو تاركا جماهير الشعب تعتقد أنها قد رأيت معجزة

وانذاك وجدت الحكومة نفسها مغلوطة اليدين ازاء التمرد غير المتوقع الذى رفع لواءه الكثيرون من ضباطها . ولما نمت الى علم السلطات فى كوزكو وقوع ثورة فى كليمنجارو ظنوا أنهم قادرون على قمعها باستخدام وباء الطفيليات ، فاذا بهم يفاجئون بأن سكان أفريقيا محصنون ضد هذا الوباء . واستبد بهم الرعب الذى انقلب الى اضطراب وذعر حين تبينوا ان العلماء من أنصار توماس قد اكتشفوا السبيل الى توليد أشعة مميتة من المنحدرات البركانية للجبل المقدس الجديد . لقد ظلوا قرونا عديدة لم يتسرب الخوف الى نفوسهم ، ما أن واجهتهم الأزمة حتى خانتهم شجاعتهم وحين حلقت قوات توماس فى أسطول ضخمة من الطائرات فى سمائم وراحوا يهددونهم بنشر غبار الموت الذى جاءوا به معهم ، لم يكن من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الا أن استسلمت على أساس الوعد بالبقاء على حياتهم ، وأصبحت كليمنجارو مركزا للحكومة ، ونصيب توماس رئيسا لجمهورية العالم كما اختير بول رئيسا لوزرائه . واعترف الجميع بأن عهدا جديدا قد بدأ ، أما عصر زهاتوبولك فقد زال وولى !

وما أن استقر حكمه حتى بدأ توماس يعمل فى رفع الذل الذى لحق بالشعوب غير الهندية جميعها ، فخفض ساعات العمل التى كان البيرويون قد حددوها بعشر ساعات لا بدافع اقتصادى بل بهدف ارهاق العمال حتى لا يقووا على التحرر أو الثورة . وبفضل جهود فريق المخلصين ، ازدادت موارد العالم الغذائية ، وبإباحة منع الحمل باقت هذه الزيادة تخدم الصحة وتحقق الرفاهية بدل أن تؤدى الى مضاعفة عدد السكان . واشترك فى السلطة السياسية من كان علي قدر كاف من التعليم الذى أخذ ينتشر بأقصى سرعة ممكنة فى ربوع الأرض قاطبة . وشهدت كثير من الدول التى كانت ترزح تحت نير العبودية نهضات عظيمة فى الفن والشعر والموسيقى وانطلقت الطاقات المقيدة ، التى ظلت قرونا فى ركود وخمول تشكل حياة خصبة مثمرة لم تشهد مثلها سوى عصور عظيمة محدودة لقرون محدودة . ونادى بعدم الاعتراف بالآلهة وبذل قصارى جهده ليقنع العالم بأن المعجزات مستحيلة الوقوع ، وأن رأى الناس فى نجاحه من الموت معجزة محققة ، وكان هنالك من أرادوه فى مكانة زهاتوبولك السابقة ، لكنه رفض التأليه بشدة ودعا الى مقاومة هذا البدأ فى جميع المدارس ، فلم يكن فى عهده كهنة ، أو طبقة أرستقراطية . لا أجناس حاكمة ولا شعوب مغلوطة على أمرها .

الفصل السابع

المستقبل

تلك هي قصة الثورة العظيمة كما رواها بول . صديق توماس ، بعد حكم دام سنين طويلة وانتهى بموته . ومنذ ذلك اليوم صارت قصة حياته وتعاليمه كتابا مقدسا للعصر الكليمنجارو ولكن ما لبث الناس أن اكتشفوا شيئا فشيئا أن بعض جوانب نظرية توماس قابلة للتحريف وسوء التفسير ولو ترك كتاب « بول » يقرأه الجميع لأدى الى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها ، إذ هو لم يشير الى الأمور التي تفهم حرفيا وتلك التي تعتبر مجازية . وساد الاعتقاد في ربوع الأرض قاطبة أن توماس كان في الحقيقة الها ، كما كانت ديوتيميا الهة ، وأن كليهما ارتدى رداء البشر لفترة وجيزة . فما أن وافتهما المنية حتى استأنفا حياتهما السماوية التي تخليا عنها لبضع سنوات معدودات من أجل خلاصنا ، وحين أنكر توماس ألوهيته فانما كان ذلك بالنسبة لظهوره الأرضي . ذلك ما نادى به المفسر العظيم « جريجوريوس » بعد موت توماس بخمسمائة عام .

وظل كتاب بول متداولاً فترة من الزمان مشفوعاً بتفسير جريجوريوس ومع ذلك ظل ينطوى على ضرب من المخاطرة . فحظرت قراءته حتى مع التفسير إلا لمن يصرح لهم بذلك من اللاهوتيين ، ولم يضعف هذا الحظر من خطورته ، وفي نيوزيلاند لا توجد غير نسخة واحدة بجامعة أوكلاند كانت قد أعيدت أخيراً إلى الجامعة وقد دونت فوق صفحتها الأخيرة الملاحظة التالية الغريبة : « أنا ، طوبيا من قبيلة نجابوهي » المقيم فوق منحدرات « روبيهو » ، لست مقتنعا بما ذهب إليه « جريجوريوس » من تفسير أخرق . ويقىني أن توماس كان أحكم من جريجوريوس ، وأنه كان يعنى حرفيا كل ما يراه ذلك الكاهن الذي تستبد بذهنه الأمور اللاهوتية محيراً مقلقا . ولسوف تكون رسالتى - إذا ما أتيت لى ذلك - أن أعود بالعلم الى ذلك الاتحاد القديم الذى سعى محرره الى نشره . »

تلك كلمات تنذر بالسوء لم يتضح بعد ما تمخضت عنه من نتائج .

الايمان والجبال

الفصل الاول

استقبلت الدهشة بمندوب نيبال لدى هيئة « اليونسكو » وتملكته الحيرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يهجر فيها انهار بلاده الجليدية وصخورها المنحدرة الآمنة ، ويدفع بنفسه الى مخاطر الغرب التي تثير في النفس القلق والاضطراب . كان المندوب قد وصل بالطائرة في ساعة متأخرة من عشية اليوم السابق فلم يلحظ شيئاً من حوله ، وراح يغط في سبات عميق حتى الضحى ، اذ كان متعباً منهوكة القوى . ثم أخذ يتطلع الى شارع كان النادل الذي أحضر له طعام الافطار قد أبلغه أنه شارع « بيكاديللي » ، فلم يبد له بالصورة التي رسمتها في ذهنه أفلام السينما ، كما أنه لم يلمح فيه حركة عادية للمرور بل موكباً هائلاً من رجال ونساء يسرون على الأقدام ، وقد رفعوا لافتات لم يسعه قاموس ، كان يحمله ، لادراك مغزاها . غير أن العبارات التي تضمنتها كانت تتردد على نحو تمكن معه من فهم رموزها ، فقد كانت الجماهير تهتف بعبارات متعددة ، لكنها تحمل معنى واحداً استطاع في النهاية أن يحذسه . . . لقد سمعها تصيح : « تحية للمبدنوم^(١) صانع الأجسام الصحيحة » . . . ثم ترامت اليه عبارة أخرى ترددت كثيراً تقول « الى المجد مع المبدنين » . . . وثالثة لم تتكرر كسابقتها هي « عاشت القديسة مولي . ب . وين » . . . وكان هناك فريق آخر قد تولاه الهياج والغضب ، يحمل لافتة تقول : « الموت لأنصار المغناطيس الأدياء » . كان الموكب مهولاً ، اذ بلغ طوله في بعض الأحيان ما يقرب من ربع الميل . كما كان يضم فرقة موسيقية وجوقة من المرتلين أخذوا ينشدون ما بدا كأنه نشيد الجنود الزاحفين الى أرض المعركة :

المبدنوم أحسن المصان ،

نافع الأعظم والحقير ،

(١) منصر معدنى هس يمزج بالفولاذ لحفظ صلابته ضد الحرارة الشديدة .

يشفى جميع أمراض الصدر ،

وينمى أيضا عضلاتنا . .

كانوا يرددون النشيد كما يرددون التراتيل الدينية ، وهذا ما لم يدركه المندوب النيبالى ، اذ لم ينعم بتربية مسيحية .

وما أن خيل اليه ألا نهاية لذلك الموكب حتى حدثت فجوة أعقبتها شرذمة من شرطة السوارى . ثم موكب آخر يحمل لافتات مغايرة تماما كتب على طائفة منها : « المجد لأورورا بوهر » بينما حملت أخرى عبارة : « القوة للقطب الشمالى » . . الى جانب لافتات أخرى كانت تقول : « عن طريق المغناطيسية نزال العظمة والجلال » . ومالبث الزاحفون أن انطلقوا في هذا الموكب وجعلوا يرتلون بدورهم ترنيمة لم يفهم كثيها ، شأنها شأن ترنيمة الموكب الأول . كانوا ينشدون :

أتقدم

نحو الشمال

فى مركبتى ذات المحركات المتفاته

أهبط فوق القطب

لخير نفسى

وأعلم أن « بوهر » تفضل « هاريت » كثيرا .

كان كلما مر الوقت ازداد قصول مندوب نيبال حتى بلغ الذروة ، فإذا هو يندفع الى الشارع فينضم الى الموكب الزاحف ، وبأدب الشرق العتيق يسائل من كان يسير بجواره : « ألا نكرمت ياسيدى ، وتفضلت بأن تشرح لى السبب الذى يحمل هذا الجمهور المرتل على الزحف ناحية الغرب بمثل هذا العزم والنظام ؟ » .

فأجابه الرجل « باركك الله ، أتعنى أنك لا تدري شيئا عن طائفة « الماجنتس » ، ترى من أين أنت قادم ؟ »

فاستطرد المندوب « لا تضق ذرعا بجهلى ياسيدى ، فأنا لم أهبط من الطائرة الا بالأمس القريب فقط ، وكنت من قبل ، أقطن جبال الهيمالايا في

منطقة لا يسكنها غير البوذيين والشيوعيين ، جماعة طبعت على السكنية والهدوء ولا تشغل بالها بمثل هذه المسيرات الطويلة الغريبة » .

فقال جاره : « يا الهى ، ان كان هذا شأنك ، فتبسيط الأمر لك كى تفهمه يتطلب من الجهد ما لا غنى لى عنه » .

ثم مضى المندوب فى صمت يحذوه الأمل فى أن يكشف له الزمن حقيقة الأمر .

وفى نهاية المطاف ، وصل الموكب الى مبنى هائل مستدير اسمه « قاعة البرت » ، على حد قول جاره ، حيث سمح للبعض بالدخول بينما أجبر السواد الأعظم من الجماهير على البقاء خارجا . أما مندوب نيبال فلم يؤذن له بالدخول فى بادئ الأمر ، لكن بعد أن أفصح عن مركزه الرسمى كمندوب وأوضح اهتمام بلاده البالغ بمظاهر الغرب الثقافية اذنوا له ، فى النهاية ، بأن يتخذ مقعده فى المؤخرة فى منتصف القاعة تماما .

ولاح له أن ما شاهد وسمع انما يلقى ضوءا عظيما على أخلاق شعب عجيب وجد نفسه بين ظهرائه ، وعلى عاداته وتقاليده وعقائده وأساليب تفكيره . بيد أن ما ظل خافيا عليه كان كثيرا ، فقرر أن يكرس نفسه لبحث جدى ويرفع تقريراً مفصلاً ينير به عقول حكماء الهيمالايا .

وبرهنت المهمة على أنها شاقة فعلا ، ولم ير أن ما توصل اليه جدير بحكمة من أوفدوه الا بعد مضى اثنى عشر شهرا . وكان من حسن حظى ابان تلك الشهور الاثنى عشر أن توطدت بينى وبينه وأصر الصداقة وأن أتيح لى الانتفاع بحكمته . وفى ضوء تقريره ، كتبت هذه القصة التى تتناول المناقشة العظيمة والأحداث التى أفضت اليها وأعقبها . ولولا جهوده ما كان لقصتى أن تبلغ ما بلغته من دقة وإفاضة .

الفصل الثانی

كانت كل من الطائفتين اللتين شهد مندوب نيبال مناقشتها العلنية، قد ظهرت بعد فترة اكتنفها الغموض • وفي السنوات الأخيرة راحتا تنتشران بسرعة مذهلة قل أن تجد معها شخصا ، باستثناء العلماء ، لم ينضموا تحت لواء احدهما • وكان يطلق عليهما : « الملبدينين » و « المغنطيسيين الشماليين » أو « المغنطيسيين » فحسب كما اتخذت كل منهما لندن مقرا لرئاستها ، وكان « زيرويا تومكنز » يدير دفة أمور الملبدينين بينما تولى « متاسا ميرو » ادارة شئون « المغنطيسيين » • أما العقيدة الأساسية التي كانت تعتنقها الطائفتان ، فكانت بسيطة لا تعقيد فيها ••

كان الملبدينون يعتقدون انه لتنمية الصحة والقوة تنمية كاملة يحتاج جسم الانسان في الغذاء الى قدر من الملبدنوم أكبر مما هو مألوف من قبل، وكانت آيتهم المختارة هي : « من يأكل ، يأكل للرب ، ومن لا يأكل ، فللرب لا يأكل » • لكنهم غيروا ترتيب كلمات الشطر الأخير من الآية فصارت تقرأ : « من لا يأكل ، لا يأكل للرب » •• وراحوا يفسرون عبارة « من يأكل » بأنها تعنى شخصا يأكل الملبدنوم ، مدعمين رأيهم بقصة لا أستطيع أن أقطع بصحتها ، وهى أن قطعانا كبيرة من الغنم في منطقة معينة باستراليا أخذت تضعف وتموت موتا بطيئا لخلو مراعيها القليلة خلوا تاما من عنصر الملبدنوم بعكس ما يوجد في أوروبا وآسيا • وأعلن بعض علماء الكيمياء العضوية والأطباء - لعلمهم ليسوا من أبرز المشتغلين بالمهنتين - ما لعنصر الملبدنوم من أهمية غذائية ، فاستغل أنصار هذه الطائفة المخلصون هذه التصريحات واتخذوا منها دليلا يبرهن على صحة عقيدتهم • لقد كان الاقبال على هذا العنصر المعدنى ، غير الشائع ، شديدا لصناعة الأسلحة ، فلما أخذت حدة التوتر تخف رويدا رويدا تناقص هذا الاقبال • لكن مع انتشار طائفة الملبدينين وتطورها ، لم يعد طلب الملبدنوم

يعتمد على اندلاع نيران الحرب • ان كان الملبدينون يناهضون الحرب ويعتبرون الناس جميعا اخوة ما خلا أنصار طائفة •• المغنطيسيين •• لكن التغلب على هذه الطائفة ما كان ليتحقق بالقوة بل بنور الحق الساطع الوضاح •

أما طائفة « المغنطيسيين الشماليين » فقد اكتشفت سر سعادة الانسان ورفاهيته في اتجاه مغايير تماما فهي تقول « نحن جميعا أبناء الأرض ، والأرض ، كما يعلم كل تلميذ مبتدئ ، مغنطيس عظيم • ومن واجبنا جميعا أن نشارك بدرجات متفاوتة في الميول المغنطيسية لأننا العظيمة • وإذا لم نخضع أنفسنا لسلطانها الخير شملنا القلق والاضطراب ومن ثم يتحتم علينا دائما أن ننام ورؤوسنا متجهة صوب القطب الشمالى وأقدامنا نحو القطب الجنوبي ، ومن يداوم النوم هكذا ينل رويدا رويدا نصيبا مما للأرض من قوى مغنطيسية ، وينعم بالصحة والعافية والحكمة •• ذلك ، على الأقل ، ما كان يؤمن به أنصار طائفة « المغنطيسيين » إيماننا راسخا لا يتزعزع •

وكان بكل طائفة دائرتان ، واحدة داخلية وأخرى خارجية ، يطنق على الأولى دائرة « القادة » كما تسمى الثانية دائرة « الاتباع » • وكانت لأعضاء الدائرتين شارة تميز أعضائها عن غيرهم • فقد كان أتباع « الملبدونوم » يضعون خاتما من الملبدونوم في أصابعهم ، بينما دأب المغنطيسيون على أن يعلقوا في أعناقهم مغناطيسا في شكل قلادة • وكان القادة يكرسون أنفسهم للحياة المقدسة التي كانت موزعة بين التأملات والعمل التبشيري • ومن ثم كان « القادة » لدى كل من الطائفتين أصحاب وسعداء وأطهارا • لقد كان الخمر والتبغ محرمين عليهم • كذلك كانوا يأوون الى الفراش في ساعة مبكرة ليتسنى للدم ، بالنسبة لطائفة الملبدونوم أن يمتص ما تناولوا من الملبدونوم مائح الصحة والعافية ، ولتتمكن قوى الأرض المغناطيسية ، بالنسبة للمغنطيسيين من أن تعمل عملها كاملا إبان ساعات الظلام • ولم يكن القادة ، بقوة الايمان ، يعبأون كثيرا بالمضايقات اليومية التي كانت تقلق من لم يؤثروا هذا القدر من الايمان • حقا كانت لهم مشكلاتهم في أيام خلعت ، حين كان المتطرفون من غير الحكماء يدفعون بتعاليم الطائفتين الحكيمة السامية الى ما وراء حدود الحكمة ، فقد وجد يوما بين صفوف الملبدينين جماعة متطرفة حسبت أن القداسة يمكن قياسها بقدر ما يستهلك من الملبدونوم يوميا ، فانغمس بعضهم في استهلاك هذا العنصر حتى بات جلداهم أشبه بلون المعدن ذاته ، وبات واضحا أن من

الممكن الانغماس في الملبدونوم كما في أى شئ آخر لدرجة الافراط مهما سميت نواياهم . واضطر الشيوخ منهم ، عقب اجتماع عاصف ، الى معاقبة المتطرفين وتدريبهم على النظام ، فلم تظهر بعد هذه الواقعة المؤلة مشكلة مماثلة .

وبرز بين المغنطيسيين نزوع الى تطرف من لون مغاير ، اذ وجد من

قالوا : مادمننا ننال الفضيلة ونحن نيام في اتجاه قوة الأرض المغنطيسية ، فقد بات لزاما علينا أن نضطجع على هذا النحو بصفة مستديمة . فالنهوض من فراشنا مخاطرة يفقدان الفضيلة الملهية التى تهبها الأرض لمن يعبدونها كما ينبغى . ومن ثم كان هؤلاء المتحمسون يقضون الأربع والعشرين ساعة فى الفراش ، مما بعث الضيق البالغ فى نفوس أقربائهم وأصدقائهم ممن كانوا دونهم حماسا وتعصبا . وأمكن القضاء على هذه الهرطقة بما كان الشيوخ من سلطان ، كما قضى على تلك التى ظهرت بين صفوف الملبدين وان يكن بمشقة ، وصدر قرار يحظر على أى عضو من المغنطيسيين البقاء فى فراشه أكثر من اثنتى عشرة ساعة من الأربع والعشرين ، باستثناء أوقات المرض .

بيد أن هاتين المشكلتين لم تظهرا الا فى الأيام الأولى من تاريخ الطائفتين ، أما فى أيامهما الأخيرة فقد اتحد الجهاد فى الدعوة والنجاح السريع مع الصحة والقوة ليملأوا حياتهم غبطة وبهجة . ولم يكن ثمة ما يقلق القادة سوى أمر واحد هو أن الملبدين لم يستطيعوا فهم السر الذى حدا بالعناية الالهية الى أن تسمح بنمو المغنطيسيين ، كما أن هؤلاء لم يتسن لهم فهم السبب الذى حمل العناية الالهية على السماح بنمو الملبدين وتقدمهم . وراحت كل طائفة تعزو نفسها بالقول أن هناك . ولاشك ، سرا غامضا يكمن فى مكان ما ، وليس لعقل الانسان المحدود أن يدرك مقاصد العناية الالهية السامية ، ولامرء فى أنه عند اكتمال الزمان سوف يسود الحق وستحظى الطائفة التى ظلت تعلن الحقيقة بالتأييد العالمى . وعلى « القادة » ، فى هذه الأثناء ، أن ينشروا النور بالقوة الحسنة والارشاد والكلمات الحكيمة فى وقت مناسب وغير مناسب . ولقد كان النجاح الذى حققته كل من الطائفتين فى هذا الصدد موضع دهشة واستغراب لغير المكترث .

ولقد تعرضت كل طائفة ، فى فجر تاريخها ، لسخرية غير المؤمنين بها ، الذين راحوا يتساءلون : ولماذا معدن الملبدونوم بالذات ؟ ولم لا يكون

السترونتيوم ؟ ولم لا يكون الباريوم ؟ ثم ما سر عظمة هذا العنصر دون سواه ؟ وحين أجاب المؤمنون بأن السر لا يدركه الا أولئك الذين نالوا الايمان قوبل الرد بتهكم وسخرية •

وسرعان ما واجه المغنطيسيون الشماليون عين المعضلة ، فكان المرتابون يتساءلون : ولماذا لا يكون القطب الجنوبي ؟ وذهب البعض - ولا سيما من كان منهم يقطن نصف الكرة الجنوبي - الى حد أنهم دأبوا على النوم ورؤوسهم في اتجاه الجنوب ، وراحوا يعلنون تحديهم لأنصار طائفة المغنطيسيين الشماليين للدخول معهم في مباريات للمصارعة لاثبات أن القطب الجنوبي يمنح القوة والنشاط كالشمالي سواء بسواء • وكان المغنطيسيون الشماليون يقابلون مثل هذه التحديات بالازدراء الذى تستحقه ، فيجيبون بالقول : ان الذين يتبعون النظام المحدد لا ينالون الصحة والقوة فحسب ، اذ بتغلغل قوة الأرض المغنطيسية فى الأعماق بتحقيق نوع من الانسجام الداخلى • فمن الناحية البدنية وحدها قد يتغلب بعض الكافرين على بعض المؤمنين ، لكن المؤمنين الحقيقيين سيظلون أكثر سما و عظمة من حيث ما ينعمون به من انسجام تام بين الجسد والروح • وأما القول بأن القطب الجنوبي خير كالقطب الشمالى تماما ، فقد دحضوه قائلين بأنه لو كان هذا صحيحا فهل من تبرير للسبب الذى حدا بالخالق الى أن يخلق فى الشمال مساحة من الأرض تفوق ما فى الجنوب بمراحل ؟ ومع أن هذا الرأى قد أثار شيئا من السخط فى جنوب أمريكا وجنوب أفريقيا وأستراليا فقد ساد الشعور بأن الرد عليه أمر عسير • ولم يكن هناك مايحول دون تأثير آراء طائفة المغنطيسيين الشماليين سوى حماس أنصار الملبندوم وعصبيتهم •

كان كل جانب يحاور ، ويحاور فى صدق ونزاهة ، بأن الايمان بالحق هو وحده الكفيل بمواجهة الايمان بالباطل • ولا يستطيع المنطق الذى لا يسانده الايمان أن يتغلب على حماس المتعصبين المخدوعين • وعندما كانت الطائفتان فتيتن ، حاول بعض رجال العلوم وعدد من نقاد الأدب أن يقابلا مزاغتهما بمزيج من الاحصائيات والتهكم ، غير أنهم عجزوا عن وقف التيار الشعبى الجارف • وجاء الوقت الذى لم يقف فيه ضد كل من الطائفتين سوى أولئك الذين منعهم ذكاؤهم الفائق (أو كما هم أنفسهم يظنون) من التعاطف مع جماهير الشعب • كما لم تقف على الحياد غير الصحف الباهظة الثمن ، المحدودة المتوزع التى لم يكن يقرأها غير ارسقراطى الفكر ، والتى كانت تكتفى بنشر أقل ما يمكن ذكره عن أخبار

الطائفتين ، مما جعل كبار المتعلمين يعيشون في شبه عزله عما كان يجرى من حولهم . أما الصحف الرخيصة فقد حاولت في بادىء الأمر مهادنة كل من الجماعتين ، لكن سرعان ما اتضح أن المضى في هذه السياسة أمر متعذر ، فكان أى ثناء على طائفة المغنطيسيين الشماليين يثير سخط طائفة الملبدنوم ، كما أن عدم القدح فى الملبدنيين كان يحمل المغنطيسيين على القسم بالآي طالعوا ثانية تلك الصحيفة الساقطة . ومن ثم اضطرت الصحف الشعبية الى الانحياز الى أحد الطرفين . فانضمت صحيفة «ديلى ليتنينج» الى جانب المغنطيسيين الشماليين ، بينما انحازت « ديلى ثندر » الى الملبدنيين . وراحت كل منهما - يوما بعد يوم - تصور بشكل أشد عنفا من ذى قبل ، الانحطاط الخلقى والفكرى للطرف الآخر ، وتبرز نرى الطهر والحماس والتكريس التى يرقى اليها الطرف الذى تسانده . وتحت تأثير هذه البراعة الصحفية ، أخذت الروح الطائفية تقوى شيئا فشيئا فضاغت الرعدة القومية ، وبلغ الأمر حدا كان يخشى معه اندلاع نيران حرب أهلية .

ولم تكن المشكلة قاصرة على بريطانيا وحدها ، بل كان التوتر المتزايد بين الولايات المتحدة وكندا - ذلك التوتر الذى نشأ عن أسباب لم نتعرض لها بعد - هو ، فى الواقع ، أخطر مظهر لها .

الفصل الثالث

كانت مؤسسة طائفة الملبدنيين أرملة أمريكية فى ربيع العمر تدعى « مولى . ب . دين » وكان زوجها فاحش الثراء ، لكنه كان وديعا ، وداعة من النوع الذى يرث الأرض كما تذكر الأناجيل . . . لقد كان يملك مساحة شاسعة من أرض كلورادا آل اليه جانب منها بالميراث ، وحصل على الجانب الآخر بالاستثمار الناجح . وكانت زوجته ، التى آلت اليها الثروة الضخمة برمتها ، احدى النساء اللائى خلقن ليصبحن أرامل .

ولا يبلغ أولئك الذين يتزوجون من مثل هذه النساء سنا متقدمة • ومن ثم مات السيد دين وهو في ربيع الحياة •

لكن يبدو أنها لم تدرك هذه الحقيقة كجانب حتمي من مصيرها ، إذ دأبت على التردد عند تحديثها عن مزايا الملبدونوم : « آه لو عرفت آثار هذا المعدن النافعة في وقت مبكر ، إذن لظل زوجي العزيز (يهوشافاظ) على قيد الحياة » •

اكتشفت مسز « موللى • ب • دين » - التي كانت عقيدتها الدينية وبراعتها التجارية غير منفصلتين بالصورة التي يتمناها المرء - عند فحص استثمارات زوجها بعد موته أنها تمتلك نحو تسعة أعشار موارد العالم من خام الملبدونوم • وانتابتها الدهشة للتشابه القائم بين اسم هذا العنصر واسمها ، وأيقنت أن هذا التشابه لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ، وإنما هو من صنع القدر ولا ريب • ولا مناص من أن تكون رسالتها المجيدة في الحياة هي أن تطلق اسمها على عقيدة جديدة أكثر نقاء من أية عقيدة سابقة وتدر عليها ، في ذات الوقت ، ربها وفيرا •

كان الأمر يقتضى تلقين استهلاك الملبدونوم للتابعين الذين ينبغي أن يحملوا اسمها ويطلق عليهم « الملبدنيين » • وسرعان ما نما وليد هذه اللحظة من التفكير المبدع الخلاق ، واستطاع أن يسير على ساقيه ألا ومما : العقيدة الدينية ، والبراعة التجارية • وحتى لا تتداخل الواحدة في الأخرى قامت بتكوين شركة أطلقت عليها اسم « شركة المعادن المتحدة » ثم احتفظت بسيطرتها عليها دون أن يظهر اسمها • كما استطاعت في الوقت نفسه أن تغرس عقائدها الدينية في عقل « زرويا تومكنز » وهو رجل يصغرها سناً كان قد حقق نجاحاً باهراً كواعظ معمدانى • لكنه كان قد اختفى عن الأنظار لأنه انحرف قليلاً عن جادة الصواب وسيطرت عليه شخصيتها القوية سيطرة تامة ، فكان يتقبل كل كلمة تنطق بها كما لو كانت ناموساً الهياً • وامتلاً حماساً بالغاً لتجديد الجنس البشرى عن طريق انجيلها الحقيقى • ولما كانت قدرته على التنظيم لا تقل شأنًا عن غيرته ، اوكلت إليه - دون تردد - المهام الدنيوية لمرابطة الملبدنيين الأخوية المقدسة •

أما طائفة المغنطيسيين الشماليين فتدين بتكوينها - وإن كان أنصارها أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة - لرجل مرموق يدعى « سير ماجنوس ثورت » • وكان هذا الأخير شخصية بارزة في حياة كندا الوطنية ، يملك

مساحات واسعة من الأراضي في الشمال الغربي الخاوى التى كان يعتقد أنها تحوى ثروة معدنية ضخمة • وقرر أن يضع منطقة الشمال الغربى « على الخريطة » • فاستخدم علماء الجغرافيا الطبيعية لتحديد موقع القطب المغنيسى بدقة أكثر مما تم حتى الآن ، واستبان له ، كما كان يأمل ، أنه يقع فى منتصف الأرض التى يملكها تماما • كما اكتشف - أو بالأحرى اكتشف العلماء الذين استخدمهم - أن جبلا بركانيا يقع عند القطب المغنيسى ، وأنه سواء بفعل البراكين أم نتيجة لنشاط اشعاعى ، فإن التربة فى المنطقة المجاورة دافئة والجليد فيها يذوب ، كما أن ثمة بحيرة لا تتجمد مياهها حتى فى فصل الشتاء • وبعد أن تجمعت لديه هذه الحقائق فكر فى القيام بحملة واسعة النطاق ، واستطاع ، بمساعدة أستاذ فى علم الأجناس كان قد درس معتقدات الاسكيمو وهنود الشمال ، أن يصوغ المبادئ الأساسية للعقيدة التى باتت مذهباً لطائفة المغنيسيين • بيد أن السيطرة على الناس لا تتم بالمنطق المجرد وحده كما حذرهم علماء الأجناس وعلمته تجاربه فى سوق الأوراق المالية • وحتى أن كانت الأسانيد المؤيدة للمذهب الجديد الذى أراد نشره ينبغى أن يقبلها المنطق دون تردد فإنه راح يبحث عن مفتاح ، سرعان ما عثر عليه ، يقربه الى قلوب الناس حين ترقى وتصبح أكثر استعدادا • لقد أدرك أنه ليس من مصلحته أن يكون رسولا للمذهب الجديد ، وإنما لابد أن يكون الرسول ديناميكيا صوفيا فى آن واحد ، شخصا قادرا على أن ينفذ الى أعماق القلب البشرى، انسانا يستطيع أن يدخل فى أعماق الرجال والنساء ذلك السلام الدافق العجيب الذى يبدو كأنه يجلب السعادة ، لكنه لا يأتى بالكسل والخمول •

وترك مهمة البحث عن مثل هذا المؤسس لمساعدته عالم الأجناس الذى قام بمقابلة رؤساء المذاهب فى لوس انجلوس بشيكاغو • وذهب حيثما وجد البحث الجاد عن معتقدات جديدة ، دون أن يكشف عن هدفه بناء على توجيهات سير ماجنوس ، وفى نهاية المطاف أعد قائمة قصيرة من ثلاثة أشخاص رفعها الى سير ماجنوس ليصدر قراره الأخير بشأنها • وكان بين الثلاثة من رأى سير ماجنوس أنه شخصية بارزة دأبت على أن تلهب حماس شعب « وينبيج » الذى تنتمى اليه بالوعد بظهور اعلان عظيم ، لكنها لم تكن بعد قد أعلنت طبيعة هذا الاعلان • لقد كانت امرأة عملاقة ، طولها ستة أقدام وأربع بوصات وأبعادها الأخرى بنفس الحجم • وكانت تذكر الكثيرين ممن شاهدها بتمثال الحرية ، بل انها كانت تبدو أكثر من هذا التمثال روعة وجلالا • ولم يكن يعيها سوى أمر واحد هو اسمها

« اميليا سكجيز » • ولما أخذ سير ماجنوس يفكر فى المستقبل الذى يتمناه لم يستطع أن يتصور خضوع العالم لملكة سكيجز أو لعقيديتها • وتذكر مصير طائفة « مجلتون » التى لم يكن يؤخذ عليها غير لقبها • وظل أمام هذه المشكلة مترددا لفترة ما لبث بعدها أن عثر على حل موفق • وما أن توصل الى هذا الحل حتى قرر أن الوقت قد حان ليكشف لاميليا العظيمة ما ادخره لها من مصير عظيم •

فقال لها « أتبين ، يا مس سكيجز ، من عطاتك البليغة أنك تحسين بمصير عظيم ينتظرك ، ولقد شكاتك الطبيعة بهدف السيطرة على البشر ، لا بروعة هيكلك فحسب بل بعظمة النفس التى تسكنه أيضا ، فقد خلقت كما تعلمين ، لتؤدى رسالة • بيد أنك لم تدرى حقيقة هذه الرسالة إلا الآن ، ولقد اوكلت الى ، كمبعوث العناية الالهية المتواضع » مهمة ارشادك الى سبيل المجد الروحى المتألق الذى تعلمين أنه مصيرك • وراح يشرح لها المبادئ التى أعتنقها فيما بعد طائفة المغنطيسيين الشماليين •

وبينما هو يتحدث ، امتلأت هى بدماس روحى ، ولم يبق لديها مكان للشك ، فكان ذلك هو الانجيل الذى تبحث عنه ، انه الحق السعيد الذى يحيل كندا أرضا مقدسة ويدفع المؤمنين فى ربوع الأرض الى القيام برحلات متواضعة لزيارة حرمها المقدس الذى يأخذ بالألباب •

لم تبق أمام سير ماجنوس سوى خطوة واحدة • فابتدر المرأة بالقول « وأنت تكافحين فى ميدان الجهاد الروحى ينبغى أن تحملى اسما مغايرا لما هو لك فى العالم ، اسما مقدسا يعكس كل مقطع من مقاطعه مهمتك المقدسة • ومن ثم سسوف تعرفك أمم الأرض قاطبة بلقب جديد رائع • ولسوف يناديك الجميع :

« أورورا بوهر »

وتركته نشوى يملأ نفسها الهيام الصوفى والهدف السامى ، ومن تلك اللحظة صار التعاون بينهما وثيقا ، الا أنها احتفظت بدوره سرا مطويا نزولا على توجيهاته •

ولم يمضى وقت طويل حتى أحرزت « أورورا بوهر » نجاحا باهرا ، وطار صيحتها بين دوائر واسعة النطاق • وكان من حظها أن نعمت بمساعدة « مناسا ميرو » ، وهو رجل رغم ما أوتى من قدرة فائقة على التنظيم ، الا أنه كان يفتقر دائما الى الثقة بنفسه ، والى تلك السمات

الروحية التي كان مغرما بها فى شبابه كلما تذكر أمه القديسه • ولقد عوضته عن هذا النقص « أورورا بوهرا » التي كان يكن لها تقديسا مخلصا لا هواده فيه • ولو سأله أحد عما اذا كان يحبها لاشتات غضبا ازاء هذا التجديف • فلم يكن يشعر نحوها بحب بن عبادة • ولقد ألقى عند قدميها بمقدرته الفائقة فى تدبير أمور الحياة ثم تركها حرة طليقة تعبر بطلاوة عن ذلك الهيام الروحي الذى عليه يتوقف تأثيرها على الرجال والنساء •

الفصل الرابع

من المشروعات الأولى التي يرجع الفضل اليها فى نجاح جماعة « المغنطيسيين الشماليين » اقامة المصحح الدائري العظيم حول القطب المغنطيسى ، لقد أطلق على هذا المصحح « البيت المغنطيسى » • وفى هذا الصرح الضخم اتجهت رأس كل سرير نحو القطب الشمالى المغنطيسى الذى كان يحتل مركز الثناء الدائري • أما مؤخرة كل سرير فقد وجهت صوب القطب الجنوبى المغنطيسى ، وبفضل موقع هذا المصحح كانت النتائج العلاجية للمغنطيسية الأرضية أعظم منها فى أى مكان آخر • وباطاعة النظام العادى المحدد كان السواد الأعظم من التابعين والانصار ينعمون بصحة عقلية وبدنية ، لكن كان هناك من تهم لاصقة بهم – فى الأشهر الأولى – من تتلمذهم – آثار النورستينيا (خدر عصبى) التي كانوا قد جاعوا بها من أيام الكفر وعدم الايمان • فكانت مثل هذه الأرواح القلقة تنقل – بشرط أن تتوافر لديهم الوسائل اللازمة – بطائرات نفاثة فاخرة الى المصحح القطبى حيث تقدم اليهم كل ألوان الترف ويسمح لهم ، لأغراض طبية ، بشرب الخمر والتدخين المحظورين على المؤمنين فى أى مكان آخر •

وكان من بين رواد المصحح الأوائل ، من المصابين بالنورستينيا ، رجل يدعى « جيدىيا جيليف » كاد أن يفقد صوابه لوقوعه فى هوى – لا طائل

من ورائه - جعله يتعلق بسيدة بارعة الجمال اسمها « هاريت هموك » .
ولكن بفضل قوة « أورورا بوهر » المغنطيسية استطاع أن يبرأ من حبه
تماما ، وعرفانا منه بجميل الشفاء أقام حفلا ألقى فيه قصيدة خالدة صارت
بعد ذلك نشيد الزحف الذى يردده المغنطيسيون ، والذى بعث الحيرة
والدهشة فى نفس المندوب النيبالى .

وعند مركز القطب المغنطيسى الذى كان فى قلب القاء الدائرى ،
ارتفعت سارية يرفرف فوقها فى معظم الأحيان علم المغنطيسيين الذى يمثل
رأس « أورورا بوهر » وقد انبعث منها نور الشفق الشمالى ليضىء فى
جميع الاتجاهات ، وبعد فترة كان المؤمنون التابعون يجبرون خلالها ، عن
طريق التهديد بعقوبات قاسية ، على تحويل أنظارهم ، يحل محل العلم ،
مرة كل يوم ، وكر تلقى منه الكاهنة العظيمة وهى ترتدى ثيابا سوداء
فضفاضة ، كلمات الحكمة الملهمة ، وكان فوق رأسها تسعة مكبرات
للصوت تتخذ ثمانية منها وضعا أفقيا متجها صوب الشمال والجنوب ،
والشرق والغرب ، والشمال الشرقي ، والجنوب الغربى ، والجنوب
الشرقى ، والشمال الغربى . لقد كانت هذه أبواقا من فضة الى جانب
مكبر آخر ، بوق من الذهب الخالص ، يتجه الى أعلى كى تسمع كلماتها
فى السماء كما تسمع كلماتها على الأرض .

وحين وقفت فوق قاعدة تمثال لا يراه التابعون المخلصون من أسفل ،
فى قاعة مستديرة تدور ببطء ، جدرانها من أكثر أنواع الزجاج شفافية ،
بذراعين يلوحان كما لو كانا فى حالة احتضان عنيف وجسمها كله يتميل
ويهتز ببطء كما لو كان منجذبا بقوة التيار المغنطيسى ، بعينين واسعتين
ثاقبتين وحالتين فى آن واحد ، تومض أحيانا ويكتنفها الغموض أحيانا
أخرى - حين وقفت هكذا طففت تتكلم . وكان صوتها ، الذى يختلف عن
أى صوت ، قد تناهى الى آذان سامعيها فى أى مكان آخر ، يجمع بين
روعة رعد الجبال القاصف ورقة اليمام الهادر .

كانت تقول : « أخواتى وأخوانى الأعزاء فى المغنطيسية ، لمن دواعى
غبطتى أن أعود الى الحديث اليكم عن عقيدتكم المقدسة ، وأن أنقل اليكم ،
بفضل ما وهب لى من قوة خفية ، قوة أمن الأرض المغنطيسية وسلامتها
فلهيها يسرى فى عروقى ، وهدهوها الذى لا يوصف يستقر فى أفكارى .
ولسوف تنالون ، مستمعى الأعزاء ، كليهما وان يكن بدرجات أقل . فهل
تتسم حياتكم بالقلق والاضطراب ؟ وهل تخشون أن يضعف عن ذى قبل

الحب العارم الذى كان يكنه لكم يوما أزواجكن أو زوجاتكن ؟ ألا تصادف أعمالكم نجاحا ؟ وهل يعاملكم جيرانكم باحترام اقل - حسب يقينى - مما تستحقون ؟ لا تنزعجوا ولا تضطربوا أيها الاصدقاء الأعزاء . فأنزع أمن الأرض العظيمة تضمنا جميعا ، وما أحزانكم المؤقتة الا اختبار لايمانكم . فاطرحوا عنكم أحمالكم ولتفض عليكم الصحة المغنطيسية ، ولتكن المحبة والقوة والبهجة من نصيبكم كما هى من نصيبى .

كان الذين ينصتون اليها يتأثرون جميعا بطرق متباينة ، فالمنهوك القوى تجددت قوته ، واليائس امتلأ رجاء ، ومن كدرت المشكلات صغر حياتهم أخذوا يحسسون بتفاهتها ، ووجد الجميع أنفسهم ، فى تعبدهم لأورورا ، متحددين فى انسجام متبادل .

وكان للمولبدنيين قصرهم المنعش للنفس والمجدد للقوى ، الذى أقيم فوق قمة جبل « أكمى ألب » بكلورادو . وهو جبل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة آلاف قدم ، ويغطيه الجليد خلال ثمانية أشهر من كل عام ، بينما يبدو فى الشهور الأربعة الباقية وقد تحلى بالمرج الجبلية التى يكسوها العشب والزمهور البرية . ومن فوق قمته يشاهد المرء منظرا بديعا إذ تمتد فى كل اتجاه الجبال والوديان والغابات والأنهار . كما يرى من على بعد نهر كلورادو الأحمر وهو يشق طريقه المتعرج عبر الصخور . ولم يكن جمال المنظر وحده هو الذى أوحى للسيدة « موللى . ب . دين » باختيار هذا الموقع ليكون مقرا لقصرها ، بل لأن له فى نظرها ميزة أخرى عليها تفوق ماعداها من مزايا ، فقد كان جبل « أكمى ألب » يقع فى قلب منطقة الملبندوم التى تفرض عليها سلطانها . وكان قصر الانعاش المجدد للقوة يتربع فوق قمته ويعرف فى طول البلاد وعرضها « بمصح أكمى » . ولشدة انحداره لم يكن الوصول اليه ممكنا الا بطائرة « الهيلوكبتر » . فكانت الطائرة تحمل الرواد الى « دنفر » ثم ينتقلون الى إحدى طائرات الأسطول الضخم الذى يقف على أهبة الاستعداد فى انتظار رواد تلك المنشأة الفاخرة .

ولعل مصحح « أكمى » لم يكن يرقى ، فى مظهره الى مستوى مصحح المغنطيسيين الا أنه لم يكن يقل عنه البتة من حيث الراحة والمتعة . والواقع أن الرواد الجدد كانوا يشعرون بشيء من التبرم مما تضمه قائمة الطعام من أغذية غير مألوفة . ففى أول غذاء تناولوه ، قدم لهم « موليدا شيوس » و « موليجاتونى » و « موليب بوليب » ولحم الضأن مضافا اليه ملبندوم

و « موليفلوييس برننجوس » وغيرها من ألوان الطعام ، فقد كانت « موللى . ب . دين » حريصة على تجنب اتباع نظام موحد يبعث فى النفس الملل ، ومن ثم اتخذ الطعام الذى يحتوى على عنصر الملبندوم أشكالا متباينة فى أمسيات مختلفة . وكان ثمة فارق شاسع بين الجو الذى كانت تهيئه « موللى . ب . دين » لرواد قصرها وذلك الذى أضفته « أورورا بوهر » التى كانت تؤمن بقوة الأرض الخفية الغامضة وتدعو الى نوع من التقبل السلبي كأساس لعمل قوى لاحق . أما « موللى . ب . دين » فكانت ترى على النقيض من ذلك ، أن تذكى فى كل فرد قوته الخاصة وإرادته الذاتية وتحكمه فى مصيره . فلم تكن تؤمن بالاعتماد على معونة خارجية . وكانت فى خطبها المؤثرة المذاعة التى كان يجبر رواد المصح على سماعها قبل تناول طعام العشاء ، تطلب الى كل رجل وكل سيدة ، بل وإلى كل طفل ، أن يعتمد على ما لديه من رصيد العزيمة الذى لا مناص من أن يستند اليه جميعنا كملأذخبر . . . وابتدعت أسلوبا لتنمية هذه القوى :

فكانت تتساءل : هل تشعر بأحجام عن النهوض من فراشك فى الصباح ؟ لا تدعن له ، وابدأ نهارك بقرار حاسم للإرادة ، ثم امطط حصانك الألى . وبعد خمس دقائق من التمرين الشاق بهذه الأداة الصحية كرس نفسك للتدريبات البدنية دون معاونة . المس أصابع قدميك بيدك تسعا وتسعين مرة مع الاحتفاظ بالركبتين مشدودتين كعصا صلبة . ولن تجد بعد ذلك مشقة فى القيام بحمامك البارد ، ولو كان الماء جليدا ذائبا . وبعد الانتهاء من التمرين ، امبط الى الطابق السفلى حيث تتناول طعام الافطار الجماعى بشهية مفتوحة وبقوة فائقة فى تأهب واستعداد لما يأتى به اليوم . هل تصلك رسائل مليئة بالمعضلات العويصة : ماذا تفعل انزاءها ؟ فى مقدورك التخلص منها بقدر يسير من القوة التى استمدتها معا مارسته من تمرينات قبل تناولك طعام الافطار . هل انخفضت قيمة استثمارك ؟ لا تقلق ، فذلك الوضوح الفكرى المستمر من الحصان الألى سوف يمكنك . دون مشقة ، من أن تختار بحكمة فائقة ، مشروعات جديدة لا شك فى نجاحها مستقبلا . وان راودتك الأفكار الشريرة التى قد توجد حتى فى هذا القصر المقدس ، وان سمحت لنفسك بالرغبة فى قضاء فترة أطول فى الفراش أو فى حمام أقل برودة ، وان اشتبهت لحم الضأن خاليا من الملبندوم ، وان ساورك التفكير الرهيب ، باغراء الشيطان لاشك ، فى أن مفعول السترونتيوم كمفعول الملبندوم . . فى هذه الحالات الرهيبة جميعها أو فى واحدة منها بوسعنا أن نحظى بالخلاص باتباع قاعدة بسيطة هى : عليك فى بادئ الأمر أن تركض لمدة عشر دقائق حول فناء القصر ثم افتح ،

كيفما اتفق ، الكتاب المقدس « ملبدنوم » ، علاج الأمراض المستعصية » .
وفي أى موضع تفتح فيه هذا الكتاب سيقع بصرك على آية تزودك بالصحة .
فيتسنى لك ، بقوتك الذاتية ، أن تدفع عنك الأفكار البشعة التى حاولت
تحويل مجرى حياتك النقية غير الملوثة . وفوق هذا كله تذكر الحقيقة
الثانية : أن الخلاص ليس فى ميدان الفكر بل فى مجال العمل ، العمل
الشاق ، العمل الذى يعطى الصحة ويولد القوة . وحين تهدد الأعياب
الشيطان وحيله بايقاعك فى الشرك ، فلا تلجأ الى التفكير المضنى بل الى
العمل ، العمل الذى سوف يحدده الكتاب المقدس : العمل ! الفصل :
العمل باسم الملبدنوم المقدس .

الفصل الخامس

لقد عهدت « مونلى . ب . دين » و « أورورا بوهرا » بمهمة إدارة
القصرين لوكليهما المبجلين « تومكنز » و « ميرو » . ولم يكن خافيا على
كل من هذين الرجلين أن الطائفة التى يرعى شئونها عرضة لعداء الطائفة
الأخرى . كما كان كلاهما على يقين تام من أن الطائفة المعادية تضم سئلة
وأوغادا لا يتورعون عن القيام بما من شأنه القضاء على منافسيهم . ومن
ثم وضع كل منهما ، لا فى الحجرات العامة فحسب بل فى كل غرفة من غرف
النوم ، أجهزة « الدكتافون » التى كانت تسجل ما كان يفترض أنها
محادثات الرواد الخاصة . واستبان لكليهما أن هناك سـاخطين بل
ومرتابين لا يخفون شكوكهم من بين الذين حصلوا على إذن بدخول القصر
بطريقة أو بأخرى ، رغم ما كانت تتسم به لجنة الاستقبال من حيطة وحذر
بالغين .

وبفضل جهاز سرى بارع فى « آكمى ألب » أمكن تتبع أثر هذا السـنط
واكتشاف أن رجلا يدعى « فاجنر » كان مصدره . وكان السيد « فاجنر »
قد بدا للإدارة أنه عين الانسان الذى أقيم المصح من أجله ، فقد كان ،
على حد علم الإدارة ، رجل أعمال ناجحا أصابه التردد ، فكان يقول :

« لقد قمت بدراسة مزايا هذا وذاك وتبينت أن الأسانيد المؤيدة لكليهما متعادلة تماما . فماذا أفعل في مثل هذه الظروف ؟ » . كان ثمة خطر أن تتبدد ثروته من جراء ذلك فحاول الخلاص من هذا النقص بالانضمام الى جماعة الملبدينين ، وبدأ واضحا أن الأمل كان يراوده في الشفاء . لكن رغم ما طرأ على حاله من تحسن لم يذل الشفاء التام ، وتقرر أنه من الضروري أن يقضى فترة في « أكمي ألب » ، فوافق إذ كان لا مفر من الانزعان لأولى الأمر ، وبعد أن عهد بأعماله الى مساعديه غضى الى دار الراحة والهناء حيث يسودها جو صحي .

بيد أن مناقشاته هناك كانت من النوع الذى يتعذر الموافقة عليه . لقد قال مخاطبا شخصا كان قد تعرف عليه بالصدفة عقب تناول طعام العشاء : « عجيب ، كما تعلم ، تأثير الملبذوم على جماعة الملبدينين . . . بيد أن هناك من الأمور ما يبعث على الحيرة في نفسى ولا أجد لها حلا في الكتاب المقدس فما دام الملبذوم يتركز أساسا في كلورادو لا يسع المرء الا أن يفترض أن سكان هذه الولاية يستهلكون منه أكثر مما يستهلكه أولئك الذين يعيشون في أجزاء أخرى من هذه الجمهورية العظيمة . لكن بفحص الاحصائيات الدقيقة لم أكتشف أى فرق جوهري بين صحة من يقطنون كلورادو وصحة سكان الولايات الأخرى ، لا أنكر أن هذا الأمر يحيرنى الى جانب أمر آخر حملنى على التأمل والتفكير لقد طلبت من طبيب أعرفه أن يفحص بدقة كمية الملبذوم في جسم العضو المكرس من جماعة الملبدينين الذى استهلك القدر الذى وصفه زعيمنا المبجل من المعدن المقدس ، وتلك التى في جسم مواطن عادى . وثبت - لدهشتى - أن ما يحتفظ به جسم عضو الجماعة الصحيح البدن من هذا العنصر لا يزيد عما في جسم أى انسان يتناول طعاما عاديا . ويقضى أن ثمة جوابا لمثل هذه الأمور المحيرة ، عسائ أن أمتدى اليه . اننى لا أريد ازعاج مستر تومكنز فهو رجل جد مشغول ، فهل لك ، من وسيلة تقترحها لحل مشكلتى ؟ » .

واتضح انه يفوه بمثل هذه الأحاديث الى عدد من الناس في « أكمي ألب » . ومع ذلك لم يقسم للمسئولين أن يثبتوا ضدهم خطأ محمدا ، فاكثفوا بأن قرروا اعلان شفاؤه وارجاعه الى مسقط رأسه .

وأم يمض وقت طويل حتى ظهرت في قصر المغنطيسيين مشكلة مماثلة الى حد ما . ذلك أن رجلا يدعى مستر ثورنى كان ، على حد زعمه ، رحالة الى البلاد النائية ، عاد من رحلة ، بعد أن أنهكت قواه المصاعب التى جلبتها عليه سلسلة النكبات التى حلت به . وفى حال من القنوط

والاعياء طلب انقوة المانحة للحياة عن طريق جماعة المغنطيسيين ، وصار من التابعين وتمنى له اصدقاءه من المؤمنين تحسنا سريعا ، بيد أن التقدم كان بطيئا على نحو يدفع الى اليأس والقنوط . وبدأ غير قادر على أن يسترد الحماس الذى حمله على القيام برحلاته . وقرر المسئولون أن شفاؤه لن يتحقق الا بزيادة للقطب المغنطيسى . وكانت حكمة أولئك الذين أدركوا تدبيرات منافسيهم قد أودت باستخدام أجهزة « الدكتافون » كما هو الحال فى « أكمى ألب » ، فاستبان أن محادثات مستر ثورنى انما تهدف الى اضعاف الايمان الراسخ لمن يستمعون اليه ، وان كانت لا تتضمن ما يقطع باعتبارها ضربا من الهرطقة . وثارت الشكوك حوله وأتهم بأنه لا يكن الاحترام الواجب لأورورا بوهرا التى لم يكن المؤمن يراها الا حين تظهر فى خدرها . ودأب على أن يسأل من بجوارده : أما فكرت فى مدى طول أورورا ؟ فيجيبه الجار بلهجة تنم عن شيء من الرعب والدهشة : كلا ، كما لا أعتقد أن السؤال لائق . فيستطرد مستر ثورنى : « حسنا ، انها ، على أية حال ، امرأة حقيقية من لحم ودم . وبحكم ممارستى لعمليات المراقبة فى رحلاتى تجاسرت على أن أقيس طولها بمزولتى . ومع استبعاد قدميها اللتين لم يتسن لى رؤيتها ، تبين أن طولها يتراوح بين ستة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، وستة أقدام وأربع بوصات ونصف بوصة . ولم يمكن لتقديري أن يكون أكثر دقة بسبب انكسار الأشعة الضوئية على الزجاج الذى نراها من خلاله . بيد أنى تأكدت به ! لا يدع مجالا للشك أن منظرها كامرأة لا بأس به » .

ولم تكن المشكلة فى التفود بهذه الألفاظ عن الالهة المسيطرة ، فمما ينبغى التسليم به ، وإن يكن فى ألم ، هو أن ثمة من تأثروا بوجهة نظر مستر ثورنى فأضحوا أقل ميلا من أن ينسبوا الى تلك السيدة النبيلة قوى خارقة للطبيعة . بل كان يتخطى حدود ذلك أينما وجد التربة الصالحة لغرس بذور ما يكنه لتلك السيدة من عدم احترام . ودأب على القول « لا يخفى عليك ان هناك حالة لا يعرفها سوى نفر قليل من البيض غيرى لا أجد لها تفسيرا على أساس المبادئ المغنطيسية التى ندين بها جميعا . هناك فى منطقة نائية بالتبت واد ضيق شديد الضيق على نحو غير مألوف يكاد معه أن يكون شقا . ويتجه هذا الوادى كما اكدت لى ملاحظتى ، صوب القطب المغنطيسى الشمالى مباشرة ، ورغم ضيق الوادى فان هناك من يقضون الصيف فيه لما يحتويه من الماس ، وكانوا يضطرون الى النوم ورؤوسهم متجهة نحو الشمال أو نحو الجنوب اذ كان بعضهم يختار الشمال والبعض

الآخر يفضل الجنوب ، وكان يمكن للمرء أن يتوقع أن الذين ينامون ورؤوسهم متجهة صوب الشمال يتفوقون على أولئك الذين يؤثرون ماعداه في شتى النواحي . لكن رغم انى قضيت فيما بينهم وقتا طويلا واستفسرت عن ماضيهم ، فلم أتبين أى فارق كذلك الذى تجبرنا عقيدتنا المقدسة على التسليم به . ويقىنى أن ثمة ردا قاطعا لكنى لم أستطع تصور ماعداه أن يكون ، لو كان لك ، أو لأى من أصدقائك ، أن تنقذنى من حيرتى لنلت عظيم شكرى وبالغ امتنانى » .

وحين كشفت أجهزة « الدكتافون » عن عادته في طرح مثل هذه الأسئلة على غيره من رواد القصر الدائرى ، قرر المسئولون أنه باحث عن الحقيقة مخلص ولا ريب ، الا أن أسلوب بحثه وطابعه لا يستحقان التشجيع ، ومن ثم أعلن شفاؤه قبل الأوان ، وأعيد الى بلده مع تحذيره بأن يتأمل ، لو حدث ذلك ، في صمت في تلك الأسئلة الغربية التى أثارها بشئ من التهور والاندفاع .

الفصل السادس

نجحت الحركتان وازدهرتا برغم ما صادفهما من مثل هذه الصعاب الهينة ، فحظيت طائفة المغنطيسيين بتأييد كل فرد في اسكندناوا ما خلا طبقة المثقفين ، كما حذت حذوها أيسلند وجرينلاند حيث راح رجال العلوم يبرهنون ، بما لا يدع مجالا للشك ، على أن القطب المغنطيسى سوف يكون بمرور الوقت من نصيبهم . أما طائفة الملبدين فازدهرت في الولايات المتحدة . وفي زهول تخلت ولاية « يوتا » حيث اكتشفت كميات كبيرة من الملبدونوم ، عن كتاب « المرمون » واستعاضوا عنه بكتاب « الملبدونوم علاج الأمراض المستعصية » ، ومكافأة لهم على اعتناقهم للإيمان الصديح ، وافقت « موللى » ب . دين « على ادماج « يوتا » في الأراضى المقدسة . أما الشباب الحائر في ربوع العالم الغربى الذى تعذر عليه أن يختار

صادقاً ، في تعبيده ، بين الفاتيكان والكرملين فقد وجد راحته العقلية والعاطفية في مذهب أو آخر من المذاهب الجديدة .

وفى انجلترا حيث كانت الطائفتان متعادلتين تماما ، كان خطر وقوع صراع عنيف بينهما أشد منه في أى مكان آخر . ولم تعد المسابقات تثير الاهتمام ، وطوى النسيان فرق كرة القدم القديمة ، ولم تجذب الجماهير سوى المباريات العظيمة التى تقام بين أنصار الملبد نوم وأتباع المغنطيسيين ودخلت الطائفتان في سباق لا في كرة القدم فحسب بل في جميع ألوان الرياضة بنجاح متأرجح ، دون أن يكون النصر الحاسم الدائم من نصيب أيهما . واكتشف ، في شيء من الدهشة والغزع ، أن الجماهير لم تعد حسنة الطوية ، وأن المعارك تنشب بين الأنصار المتعصبين للمذاهب المتنافسين . واقتضى الأمر في النهاية اتخاذ قرار بفصل الملبدنيين عن المغنطيسيين فيتخذ جانب منهما مكانه على اليمين والآخر على اليسار . وأما الذين أعلنوا حيادهم فكان ينظر إليهم بعين الازدراء ويطلب إليهم أن يقفوا راجعين الى ديارهم .

وكان من دواعى غبطة المتعلمين أن يكسبوا ود الطرفين ، ولم يكن هذا أمرا يسيرا ، فكان هؤلاء المهادنون يواجهون بالقول : « من ليس معنا ، فهو علينا » . وبرغم ذلك وجدت محاولة دائبة للتوفيق بين الطائفتين ، ونشرت صحيفة « تمبورا سبلمنترى لىترز » مقالا عميقا كاشفا حول المذهبيين جاء فيه : « حرى بنا أن نسلم بأن الفكر الناقد المترن تقايه أمور عسيرة الفهم في كل من الانجيليين اللذين يجلبان آمالا جديدة وحياة جديدة للغرب المتعب المنهوك القوى . لكن أولئك اللذين تشربوا التقليد العظيم واستوعبوا رسالة جميع المفكرين العظام من أفلاطون حتى القديس توما الأكوينى ، لن يرفضوا باستخفاف العقائد الجديدة وان بدت مستعصية على الفهم ، كما كانت حال العقيدة المسيحية بالنسبة لمرتليان الذى تقبل بقلب خالص ، المبادئ الجديدة التى تتخطى حدود المنطق رغم استحالة فهمها ، بل وبسبب هذه الاستحالة عينها . وسوف يرحب جميع اللذين يفكرون تفكيراً سديداً ، بغض النظر عن المشكلات التى تواجههم في الاختيار بين الملبدنيين والمغنطيسيين ، بما هو مشترك بين الطائفتين . وإلى عهد قريب ظلت الفلسفة الآلية تسود أفكار فلاسفتنا الأفاضل وهذه النبايع العميقة للحكمة التى لا تستمد من الملاحظة المجردة للحقيقة البشعة ، بل تفيض في القلب المتضع حين ينفتح لعمل روح الحق العظيم . من تلك النبايع يستمد الملبدنيون والمغنطيسيون على السواء نشاطا وانتعاشا .

لقد ولى أدعياء العلم الأصلاف ، وولت الحقيقة الجوفاء التى نادى بها أولئك الذين أغفلوا الحقائق الخالدة التى يقوم عليها عالمنا الغربى ، فعقيدة الملبدين والمغنطيسيين على السواء تتضمن الكثير مما يرحب به كل محب للحكمة ، حتى أنه لا يسعنا الا أن نأسف على ما هما عليه من تناحر وتنافس . ونحن نؤمن ، وشاركنا كثيرون هذا الايمان ، بأن الاتحاد أمر ممكن ، ولو تحقق لزود الايمان بقيمنا الغربية بقوة راسخة لا تتزعزع ، نحتاجها فى صراعنا الخطير مع الحاد الشرق » .

كان هذا الرأى الرزين يحظى بتأييد ذوى النفوذ والسلطان . فقد كانت الحكومة البريطانية الموزعة بين حبتها للكومنولث واعتمادها على الولايات المتحدة ، تنظر بقلق بالغ الى الأزمة المتفاقمة بين كندا والنصف الغربى من الولايات المتحدة ، تلك الأزمة التى قد تؤدى ، ما لم تخف حدثها ، لا الى فشل الأمم المتحدة فحسب بل الى انهيار حلف شمال الأطلسى على حد سواء . وكان أنصار الجماعتين فى انجلترا متماثلين على وجه التقريب ، وكان كل من الجماعتين قويا لكن واحدة منهما لم تأمل فى أن تكون لها السيادة . وتقدمت الحكومة البريطانية للسيدى تومكنز وميرو بمقترحات لعقد مؤتمر وبتوصيات جادة للتعايش السلمى على الأقل ، بين الطائفتين .

وتشاور السيدان تومكنز وميرو عن طريق المكالمات التليفونية البعيدة مع رئيسى الكهنة : موللى . ب . دين ، وأورورا بوهر ، وفى الخفاء بحثت أورورا بوهر الأمر مع سير ماجنوس نورث ، وأسفرت هذه المشاورات العديدة عن قرار بعقد مؤتمر كبير بقاعة ألبرت يستهدف الوصول الى نوع من الاتفاق عن طريق المناقشة العلنية هذه هى النتيجة التى كانت الحكومة تأمل فى تحقيقها على أسوأ الفروض ، بيد أن الآمال التى كانت تراود الطائفتين مغايرة . فكانت كل منهما على يقين تام من مناعتها ، بحيث لم يكن يخامرهما شك فى النصر المبين فى أية مجابهة علنية . وعلى أساس هذه الثقة وافق كل جانب على مقترحات الحكومة .

واتفق الطرفان على أن يعقد المؤتمر الكبير برئاسة أستاذ الديانات المقارن بجامعة أوكسبرج ، ذلك الباحث الحكيم المذهب الذى كان ملما بكل ما له صلة بديانة شعب تازمانيا المنقرض ومعتقدات الهوتنتوت ومذهب الأقزام ، ومن ثم افترضت الحكومة أن بوسعه أن يظهر فهما يتم عن عطف لكل من الملبدين والمغنطيسيين ولكن خوفا من فشله ، اذ كان أكثر رقة

منه عنفا ، زودته الحكومة بفرقة قوامها بضع مئات من الجنود الأقوياء الذين لابد أن يجتاز كل منهم اختبارا دقيقا للتأكد من أنه لا ينحاز لأى من الجانبين . وأقيمت القرعة لتحديد أى الطرفين يستقر على الجانب الأيمن ، وأيهما على الأيسر ، وانتهى الأمر بأن صار اليمين من نصيب المغنطيسيين واليسار للملبدنيين . وروعى هذا التقسيم على المسرح وفى القاعة وفى كل شرفة من الشرفات ، كما ترك ممر فسيح بين الجانبين . وكان الجنود المحايدون طيلة انعقاد المؤتمر يروحون ويغدون فى هذا المشى مزودين بأوامر مشددة لحفظ الأمن بأى ثمن .

وهبطت « أورورا بوهر » و « موللى . ب . دين » من فوق جبليهما لتلبها أتباعهما المخلصين فى تلك المناسبة الحاسمة الخطيرة ، وجلست كل منهما على عرش بالقرب من وسط المسرح لا يفصل الواحدة عن الأخرى سوى اتساع المشى . وكانت « موللى . ب . دين » تحب البشر جميعا . لكنها كانت تبغض « أورورا بوهر » كما كانت « أورورا بوهر » تعشق الناس جميعا ما خلا « موللى . ب . دين » . ويعينين سوداوين تشيعان عنفا وسخرية رمت موللى . ب . دين - بعد أن استعرضت جمهور الحاضرين - أورورا بوهر بنظرة قاتلة ، تحمل من السم الزعاع ما يبعث الرعب فى نفس شخصية أشد منها ضعفا . أما أورورا بوهر فبعد أن حملت فى السقف باستغراق ، جالت عيناها الواسعتان ، فى غموض ، بين صفوف الجماهير الغفيرة المحتشدة . وان بدت نظرتها أحيانا وكأنها موجهة الى العرش المقابل . ولاح كأنها لا ترى شيئا فى ذلك الاتجاه . وفى التأمل المستغرق فى القبة العظيمة فحسب غدت وكأنها تستسلم لتلك الأحاسيس النبيلة التى خلقت منها ما هى عليه .

ووقف السيدان تومكنز وميرو أمام مكتبيهما ، وقد تسليح كل منهما بمجموعة من الأوراق ، وعلى أهبة الاستعداد بجميع الحقائق والآراء المدروسة ليتسنى له التفوق على الطرف الآخر .

وخلف زوربا تومكنز مباشرة جلس ابنه ، خليفته المختار ، زاكارى ، الذى علمه أبوه باهتمام بالغ كيف يصون عقيدته من بعده . ولم يشك زاكارى لحظة فى مبادئ الملبدنيين ولم يتصور هزيمة أن مصيرا ينتظره غير مساعدة أبيه وهو على قيد الحياة وحمل رسالته عندما يتناديه الموت الى مكان أكثر سعادة وهناء . بيد أنه كان شابا نحىلا مع أن غذاءه كان يتبل بقدر كبير من الملبدنوم . وفى أوقات فراغه كان يتجه بأفكاره الى

الشعر بدلا من العلوم الدينية ، ورغم الافتراض بأن الملبندوم يجلب
البهجة والانشراح الى قلوب المؤمنين ، كان زاكاري فريسة لمظهر ينم عن
شيء من الحزن الذي كان مدعاة لخجل دفين • وكان يعتقد أن « قصيدة
الى الخريف » للشاعر كيتس « مفرحة بلا داع ، فراح يكتب بنفسه
« قصيدة الى الخريف » مطلعها :

أوراق الخريف

وحزَم الشـعير

تثير التفكير في الغد

وفي الأحزان وفي الثلج

وغالبا ما كان يعكف على العمل آملا في أن يبلغ حالة المرح التي تسامت
على الهضم ، والتي كانت مثل طائفته الأعلى • لكن رغم ما بذل من جهود
اجتاح الحزن والوهن أعماق كيانه أينما لان بالفرار من الهرج والمرج في
مكتب الملبندين •

وأما خلف « مناسا ميرو » جلست مقابل زاكاري تماما « ليئه » ،
ابنة ميرو التي كاذت قد لقيت ، شأنها شأن زاكاري ، مبادئ العقيدة
القومية بكل حذافيرها بهدف أن تخلف أباه ، كما سعى حال زاكاري • لقد
كانت تشبهه فيما تعانیه من صعوبة في أن تكون بالحانة النفسية التي
يجب أن يكون عليها العضو « القبائي » • بل مرت بها لحظات لم تستطع
فيها حمل نفسها على احترام أورورا • كما كانت تقضى في العزف على
« البيان » الأوقات التي تفرغت فيها من العمل في مساعدة أبيها • فكان
« مندلسون » موسيقارها المفضل مع أنها كانت ترقى الى مستوى تذوق
موسيقى « شوبان » بين الفينة والفينة • ورغم ذلك لم تكن تفضل الموسيقى
الكلاسيكية بل الأغاني الرومانسية القديمة مثل أغنية « بالسعادة
تروبادور وابنة شريف مقاطعة اسلنجنون » • ولم تكن « ليئه » فائقة
الجمال ، غير أن ملامحها كانت تنم عن عظمة وأبهة ، كما كانت عيناها
واسعتين ينبعث منهما حزن وأسى •

كان طبيعيا أن يجد كل من زاكاري وليئه نفسيهما في المؤتمر أكثر
اهتماما بالطائفة الأخرى منه بطائفتها • ورمى زاكاري أورورا بوهرا
بنظرة خاطفة ، لكنه ما لبث أن تراجع في اشمئزاز من ضخامة جسمها ،

كما التقت عينا ليئة لحظة بنظرة من نظرات « مولى • ب دين » الثاقبة فامتلاّت من الرعب بما حملها على الرغبة في الاختباء • وما أن مرت لحظة الذعر هذه حتى طابت نفس كليهما بمنظر الذعر المتماثل عبر المشى وتقابلت عيناها ، وحتى تلك اللحظة كان كل منهما يظن أن من يناصر الفريق الآخر إنما هو من الأوغاد والأشرار • ولكن حينما تقابلت هذه الأعين المرتجفة اهتز كيان كل منهما ، وطفق كل يفكر : « يقينا ، أن هاتين العينين لا تحملان شرا أو ضعيفة ، ألا يكون أبى مخطئا ؟ ألا يمكن لما أحس بهمن مشاعر أن يجد له مكانا في صدر عدو ؟ أليس ثمة عامل انساني مشترك من شأنه أن يقضى على هذه الخلافات ؟ » • وبينما كانت هذه الأفكار تراود كلا منهما مضى الواحد منهما يحملق في عيني الآخر •

وفي هذه الأثناء كان المؤتمر يسير في طريقه بينما كاد الشابان ، في بادئ الأمر ، لا يدریان شيئا مما يجري حولهما •

ونهض البروفيسور ليلقى خطاب الافتتاح الذي كان قد أعده بعناية فائقة ، وبحث مع رئيس الوزراء كل كلمة تضمنها ليبعد أى إشارة ، ونى طفيفة ، للنقد أو ما يوحى ، من بعيد أو قريب ، بعدم الحياد ، وبشيء من العصبية تنحج ثم انطلق يقول :

الكاهنتان المبجلتان ، سيداتى ، سادتى اننا جميعا على بينة من أن ثمة شقاقا في هذا المؤتمر الكبير (ومن كل ركن في القاعة دوى الصياح : الصوت ! الصوت !) لكنى أثق وأؤمن بأننا متفقون في أمر واحد هو أننا نبحت باخلاص عن الحق وحين نجده نعلنه على الملأ » •

وعند سماع هذه الكلمات انطلقت من جانبي القاعة صيحة مدوية : « كلا ، كلا ليس هذا في الجانب الآخر » فأغفل البروفيسور المسكين ، في شيء من الارتباك ، بعض العبارات الظلية واستطرد يقول : « حسنا ، ليكن ما يكون ، لكن أناسا ممن أكن لحكمتهم تقديرا بالغاً يرون أن انقسام بلادنا العظيمة الى شيع متطاحنة يجلب معه اليوم ، كما جلب أيام حرب الوردتين والخلافات التي نشبت بين الملك والبرلمان في القرن السابع عشر ، خطر أننا نغفل - ونحن غارقون في معاركنا الداخلية - ما يهددنا من مخاطر فيما وراء البحار • تلك المخاطر هي التي حملت على التنام هذا المؤتمر آملا في أن يتحد المذهبان ، دون أن يضعف حماسهم أو ينتقص شيء من عمق عقيدتهم الدينية ، وبهذا الاتحاد تشكل الطائفتان سلاحا منيعا لصد ما قد يهدد به الأعداء حياتنا القومية » •

وهنا قوطع البروفيسور للمرة الثانية وانبعثت الصيحات من كبر
حذب وصوب تردد : « هذا أمر يسير فلينضم الآخرون إلينا » ، ووجد
نفسه مضطرا لأن يسقط مرة أخرى بضع صفحات من خطابه المعد ، ذلك
لاعتقاده أن من الحكمة فض المؤتمر بسرعة فقد كان الجو مشحونا
بالعواطف المتأججة . واختتم خطابه بالقول : « ليس لى أن أملى الاتفاقية
التي ينبغي الوصول إليها . فالأمر متروك لكم ان أننا نعيش فى كنف نظام
ديمقراطى . ولا يسعنى الا أن أؤكد أن المناسبة هامة وأن مسئوليتكم بالغة
وليبارك الله مداولاتكم » .

ولاح جليا أثناء القاء هذه الملاحظات الافتتاحية أن جو المؤتمر
متأزم ، فاتباع القائمون عليه أسلوبا غير مألوف ، وهو أن يتولى مأمور
الشرطة ، وليس رئيس المؤتمر ، مهمة اعلان جدول الأعمال . وبصيغة
الأمر ، وهى لهجة مغايرة تماما للهجة البروفيسور ، أعلن أن من حق
ثلاثة من كل جانب أن يدلوا بحديث لا تزيد مدته عن عشرين دقيقة ، وأن
القرعة قد حددت أن يلقي الملبدينون الخطاب الأول . وهدد بأنه يحتفظ
بقوة كبيرة من رجال الشرطة ، وعند أول بادرة للشغب سوف يطرد من
بالقاعة . وفى حالة من الذعر أذعن الحاضرون فترة واستمعوا للخطابين
الأولين دون أن تتجاوز المقاطعة حدودها .

أدلى بهذين الخطابين السيدان تومكنز وميرو فأشاد كل منهما بمزايا
طائفته وبما أحرزته من نجاح . وكانا من الحكمة بحيث عزفا عن التعرض
لنفاسيهما . ودوى السعال ، وظهر التثاؤب ، وغالب النعاس عددا كبيرا
من الحاضرين الذين استسلموا لجو العنف الذى خيم على القاعة ، وغدا
المؤتمر وكأنه سينفض فى حالة من السأم والملل . لكن كانت هناك فى الجعبة
أسهم نارية . فما أن جلس السيد ميرو حتى دعا تومكنز ثورنى ليلقى
خطاب المؤتمر . وكشف السيد ثورنى ، فى مستهل حديثه ، أنه ليس ميالا
الى الصلح .

واستهل خطابه بالقول : « سيداتى وساداتى وأنصار طائفة
المغيطسيين الشماليين اننى رئيس الجهاز السرى لجماعة الملبدينين
وأعرف من الحقائق ما هو خاف عليكم ، أعرف دخل سير ماجنوس نورث ،
وما يبسط يده عليه من اقطاعات شاسعة فى منطقة الشمال الغربى . كما
أعلم أنه يقضى مع الأنسة بوهرا ، من تزعمون أنها امرأة قديسة ، ساعات
طويلة من كل عشية ، سواء أكان ذلك فى فسق ودعارة أم فى تجارة رابحة
لست أدري » .

وبهذه الكلمات ساد الذهول المؤتمر دقيقة كاملة لقد كان المغنطيسيون يعرفون مستر ثورنى كصديق لهم ، كما شق على المولبدنيين فهم الدور الجديد الذى يضطلع به • وبينما كان المؤتمر لا يزال منعقداً فى صمت يبعث على الحيرة والقلق ، اذ بمستر واجنر يثب من مقعده ويصرخ قائلاً :

« لقد استمعتم الى أكاذيب ، وسأخبركم أنا بالحقيقة • ماذا تعرفون عن شركة المعادن المتحدة ؟ وماذا تعرفون عن ثروة المساهم الأكبر فى هذه الشركة ؟ هل تعلمون دور مادة الملبدنوم فى عملياتها التجارية ؟ اننى أستطيع بحكم منصبى كرئيس لجهاز المغنطيسيين السرى ، أن أقدم الجواب المذهل : ان الثورة ضخمة وأساسها مادة الملبدنوم ، والأرملة دين هى صاحبتها المحظوظة » •

وما أن جلس حتى هاج الجانبان فى صورة غضب عارمة ، ومن جانب انطلقت الهتافات تردد « الموت لسيير ماجنوس ! ، والعار لعشيقته الداعرة » • ورد الجانب الآخر : « ليسقط الأثرياء البخلاء • الى المقصلة بموللى القاتلة » • ولبرهة وجيزة اتحد الجانبان فى مقاومة فرقة الشرطة • وما أن انتهت هذه المهمة حتى اشتبك القديسون المتنافسون فى ملحمة عنيفة • أما رجال الشرطة الذين احتفظوا بتماسكهم ، فقد استطاعوا أن يطردوا من بالقاعة باستخدام القنابل المسيلة للدموع • وتدفقت الآلاف المذعورة وقد انهمرت دموعهم ودهمتهم نوبة عطس أخذت تحدث صوتاً كالرعد • وما أن أنعشهم الهواء الطلق حتى عاودوا الكرة الى القتال فى جماعات متفرقة ، فتمزقت الثياب من فوق ظهورهم ، وتبادلوا اللكمات وداسوا أقدام بعضهم بعضاً ، وتعالى عبارات النابية • واستمر الشغب حتى ساعة متأخرة من الليل ، الى أن غلب النعاس المتقاتلين المقدسين ، بعد أن أنهكت قواهم تماماً ، فارتموا فوق الطوارى البارء فى سبات عميق •

الفصل السابع

كان رجال الشرطة ، في تلك الأثناء ، يستحثون الشخصيات البارزة فوق المسرح على استخدام باب سرى للخروج ، وأبدى رئيس المؤتمر استعدادا تاما لمغادرة المكان احساسا منه بأن القيام بالمهمة التي أسندت اليه لم يعد أمرا ميسورا . أما المندوب النيبالي ، الذى شعر بأن كارثة محققة وشيكة الوقوع ، فقد ربت على كتف البروفيسور قائلا : « دعنى أتول أمرك » . ودفع رجال الشرطة بالرجلين معا الى احدى سياراتهم ، واذا ذلك تساءل البروفيسور : « آه ، ترى الى أين نحن ذاهبون ؟ » فأجابه صديقه الجديد : « الى سفارة نيبال » . وما أن بلغ المكان منهوكا خائر القوى حتى أنعشه اللطف والعطف «ويدا رويدا » . وبعد فترة من الزمن استجمع خلالها أفكاره ، عرض عليه منصب أستاذ لمادة تخصصه بجامعة نيبال بمنطقة الهيمالايا ، بشرط أن يوقع على وثيقة كتبت بلغة يجهلها ، فوقع على الوثيقة، وبعد أن دعم بذلك أوراق اعتماده، التى كانت تحتوى - كما اكتشف بعد ذلك بوقت طويل - على بيان أن « تنسنج » هو أول من من بلغ قمة جبال ايفريست . ثم أقلته طائرة الى كرسى الأستاذية حيث طفق يمارس نشاطه الأكاديمي الجديد . وبعد عشر سنوات ، خرج بكتابيه الخالد « الدين والخرافة بين سكان الغرب الأصليين » ، غير أن هذا المؤلف لم يقدر له أن يظهر بأية لغة أوروبية .

كانت الكاهنتان تشكلان لرجال الشرطة معضلة عويصة ، فقد اندفعت موللى . ب . دين في وحشية وجنون - وقد نسيت كل ما يحيط بها - عبر الممر لتعتدى على أورورا الضخمة ، فنشبت أظافرها في وجه منافستها وأحدثت به خدوشا طويلة دامية ، فما كان من الأخيرة الا أن دفعتها بيدها فطرحتها أرضا ، فصرخت وهى منبطحة على الأرض « يالك من امرأة وقحة خبيثة ! » . فرددت عليها « أورورا » ، بصوت مختلف تماما ، بل أشد قوة وحدة ، عما اعتاده تلاميذها ، تقول « يالك من امرأة سليطة

سارقة ! » • ورفع بعض رجال الشرطة مولى • ب • دين بينما راح عشرة آخرون ، بهراوات ممدودة ، يدفعون أورورا بوهرا الى الأمام ، وزج بكليهما الى عربة السجن حيث مضتا تكيل كل منهما السباب للآخرى عبر فاصل من رجال الشرطة بينهما • ووجهت الى كليهما تهمة الأخلاق بالآمن واحتجزتا لتقضيا الليلة فى زنزانة منفصلة أثارت تأملات هى أبعد ما تكون عن أية تأملات سارة !

وعاد توكنز وميرو الى مكنتيهما فى حماية رجال الشرطة ، ولم يكونا يتوقعان تدخل رئيسى مخابراتهما بصورة متطرفة عنيفة • وباكتئاب شديد راحا يفكران فى انهيار العمل الذى قضيا فى بنائه جل حياتهما وقد غاصت رأسهما بين أيديهم • وبالرغم من أن الامتناع التام عن المسكر ، باستثناء من هم فى قصور الانعاش والترريح ، كان من المبادئ الأساسية لكل من الطائفتين فقد عثرت الخادمتان فى الصباح على هذين الرجلين المؤمنين منبطحين على الأرض والى جوار كل منهما زجاجة فارغة •

أما زاكارى وليئة فقد اندمج كل منهما فى الآخر على نحو لم يدريا معه ما كان يجرى من حولهما حتى صار الضجيج لا يحتمل ، وخلفهما بمسافة قصيرة كان يجلس بين المحايدين « أناذاياس واجثورن » ، أحد المسؤولين فى وزارة الثقافة الذى كان قد أرسل ليحصل على بيانات تستعين بها السلطة المركزية عند اتخاذ أى إجراء • ولقد كان رجلا لطيفا قادرا على تمييز الأمور ، ولاحظ اندماج كل منهما فى الآخر • ولما بلغ الاضطراب ذروته مد يدا لكل منهما وقال : « سأحرسكما الى مكان أمين » • ورغم ما انتاب كلا منهما من ارتباك فى حضرة الآخر فقد أذعنا ، ان لم يكن أمامهما من سبيل آخر ميسور ، وبعون من رجال الشرطة استطاع أن ينقذهما وينقلهما فى هدوء الى مسكنه ، حيث قدمهما الى زوجه التى مضت تنصت اليه فى وعى وهو يسرد ما منى به المؤتمر من فشل ذريع • وكانت زوجة طيبة القلب تحس بعطف بالغ نحو الشباب • فقالت لزوجها : « من رأى ألا يحاول هذان الشبان العودة الى ديارهما هذه الليلة ، فالشوارع صاخبة مضطربة ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما قد ترتكبه الجماهير الغاضبة ، فاذا قنع السيد زاكارى بأريكة غرفة الاستقبال يمكن للنسة ليئة أن تشغل الغرفة الشاغرة ، ومن ثم يتسنى لكليهما أن يقضيا الليلة هنا » • ووافق الاثنان بامتنان • وسرعان ماراحا يغطان فى نوم عميق اذ كانا منهوكى القوى متعبين •

ولما كان المؤتمر الكبير قد انعقد يوم السبت فقد تسنى لمستر واجثورن أن يبقى بالمنزل في صبيحة اليوم التالي . وكرس نفسه لمواساة الشابين والتخفيف من حدة مشاكلهما . ولم يدر أى منهما ماذا يصدق مما استمع اليه بالأمس من أمور أفشيت في غير وضوح . فهل يعقل أن تكون عقيدة الملبدين قد قامت على خديعة مالية ؟ وارتعدت أفكار زاكارى من مثل هذا الاحتمال البشع . وهل يمكن ألا تزيد عقيدة المغنطيسيين عن كونها فى طريق سير ماجنوس نورث المفضى الى الثروة والجاه ؟ ولاح هذا التفكير الخانق للبيئة وكأنه يجرد الحياة من كل أهدافها . وحين رآهما مستر واجثورن مكتئبين وبلا شهية لطعام الافطار ، استفسر منهما عما يساورهما من شكوك . فابتدراه بالسؤال : « أيمكن أن تكون هذه الأمور حقيقية ؟ » .

فأجاب واجثورن : « أخشى أن تكون عين الحقيقة .. ان مهمتى الرسمية هى أن أقوم بتحقيقات عن كل من الطائفتين ، ومن مجلس التجارة تأكدت مما تمتلكه مسز دين من أسهم ضخمة في شركة المعادن المتحدة ، كما أنه عن طريق حكومة الاقليم الشمالى - الغربى تبينت المنطقة الشاسعة التى يمتلكها سير ماجنوس والاحتمال الكبير لاحتمائها على ثروة معدنية أما علاقة سير ماجنوس بأورورا بوهررا فقد اكتشف أمرها منذ وقت طويل وهى موضع رقابة رجال الشرطة . ولست أشك في أن والديكما يجهلان ما أفشى في مؤتمر الأمس ، ويقينى أنهما مقتنعان اقتناعا قلبيا خالصا بأن ما يبشران به من مبادئ انما هو الحق والخير ، وحين يتسع أمامكما المجال للتأمل والتفكير ربما أيد كل منكما أباه واحتفظ بعقيدته كسابق عهده ، لكن الذى أراه أكثر احتمالا هو أنكما سوف تدركان ما أرى أنه الحقيقة في هذا الموقف المؤلم فتتعلمان كيف تبنيان حياتكما على أساس أشد رسوخا مما استندتما اليه من قبل .

وصاح كلاهما : « وهل يمكن لأية حركة لها هذا القدر من الانتشار كما لها هذه القدرة الفائقة على التأثير في أفكار الناس ، أن تقوم على الحمافة والخداع وحدهما ؟ »

فأجاب : « هذا أمر جد ميسور ، أن عملى يقتضى دراسة تاريخ مثل هذه الحركات ، فهى متعددة ، يزدهر بعضها فترة وجيزة بينما يظل البعض الآخر قائما قرونا بأكملها . لكن ليس ثمة علاقة على الإطلاق بين قوة الحركة وحياتها وبين أساسها الذى يقوم على الخير والصلاح . »

وهنا تناول من رفوف مكتبته مجلدا ضخما بعنوان : « قاموس المذاهب والخرافات والطوائف ومدارس الفكر الدينى » .

ثم قال : « لا تتوهما أن ثمة مبررا يحملكما على الاحساس بالخيال أو الاعتقاد بأنكما تختلفان عن بقية البشر من حيث القدرة على الايمان بما يثبت بعد ذلك أنه هراء . ان هذا المجلد يحتوى على مثل هذه الحماقات التى وقعت خلال الألفى سنة الماضية ، وقليل من الدراسة والبحث يكشف لكما أن مذهبيكما يبدوان معقولين ومعتدلين اذا قورنا بكثير من تلك المذاهب . وبما أن كلا من مذهبيكما يبدأ بحرف « م » ، فلنر ما يذكره هذا الكتاب تحت هذا الحرف . كما أوصيكما بدراسة تعاليم مذهب « مكاريوس » . وأؤكد لكما أنها جديرة بالاهتمام ، شأنها شأن مذاهب الماجورنية ، والملاكانية ، والمارسلينية ، والماركوسية ، والماسيونية ، والملكصادقية ، والميتانجسموننتية ، والمورلستشيكية ، والمالجلتونية ، ولناخذ على سبيل المثال ، الماركوسية التى اتبعت ماركوس ، الساحر . . . « كان بارعا فى الخدع السحرية . . . يجمع بين حركات اناكزيلوس البهلوانية وسحر الجوس » . وبهذه الفنون كان يهتك أعراض زوجات الشمامسة ويستبيح لنفسه هذه الحرية المطلقة على أساس المبدأ القائل أنه « قد ارتفع فوق كل قوة » ، ومن ثم فانه حر طليق يفعل ما يشاء ، بل لعل من دواعى غبطتكما أنكما لا تنتميان لمذهب جماعة المورليستشيكي التى من « عادة أفرادها أن يلتقوا معا فى مكان منعزل فى يوم معين من كل عام ، وبعد أن يحفروا حفرة عميقة يبدأون فى ملئها بالخشب والقش وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال وهم ينشدون ترانيم غريبة خاصة بالاحتفال . وما أن تشتعل النيران فى كومة الوقود حتى تثبت الأعداد الغفيرة الى قلب النار تدفعهم تراتيل الظفر التى يرددونها الذين يقفون من حولهم ، وذلك لشراء الاستشهاد المزعوم بهذا العمل الانتحارى » . كلا ، يا صديقى العزيزين . ليس ثمة ما يدعو الى الاحساس بأنكما فريدان فى هذه الحماقة ، فالحمافة شئ طبيعى فى الانسان . اتنا نعتقد أن ما يميزنا عن القرده هو قوة التفكير ، ولا نتذكر أن القدرة على التفكير فى العام الأول من الحياة شبيهة بالقدرة على المشى ، نحن نفكر ، هذا حق ، بيد أننا نفكر على نحو من السوء . أشعر معه فى أغلب الأحيان أنه من الأفضل لو أننا لم نفكر . . . وبما أن لدى بعض الأمور التى يتحتم على القيام بها ، فانى أدعكما الآن وشأنكما » .

وفى خلوتهما خيم الصمت المشوب بالحيرة والارتباك فى بادىء الأمر ، وفى النهاية قال زاكارى فى تردد : « لست على استعداد للاعراب عن رأى

فيما سمعت بالأمس وفيما قاله صديقنا اللطيف • لكن شيئاً واحداً لا يداخلني فيه شك ، هو أنه حينما تطلعت عبر الممر ورأيت الطهر الخالص والحب الصادق يشيعان من عينيك ، لم أقو على تصديق ما يقال من أن المغنطيسيين قوم ساقطون » •

فتنهدت وقالت : « اننى سعيدة بما قلت يا مستر تومكنز ••• و ••• وان عين الاحساس كان يخالجنى نحو الملبدين » •

فتساءل في دهشة : وهل يصدق ، يا مس ميرو ، أن شيئاً قد انقذ من وسط هذا الدمار ؟ ويعد أن جرفنا التيار على انفراد وفرق الشك واليأس بيننا وبين رفقاءنا القدامى وآمالنا السابقة ، هل لى أن اعتقد أن كلامنا قد اكتشف الآخر في هذه الليلة التي نبدو فيها كأننا في عزلة ؟ • فقالت : « أحسب أن ذلك ممكن يا مستر تومكنز •• » •

وعقب هذه الكلمات ارتمى كل منهما بين ذراعى الآخر • ولبرهة نسيا أحزانهما في نشوة متبادلة ، لكن سرعان ما تنهدت ليئة وقالت : « لكن ماذا نفعل يا زاكاري ؟ أنحطم قلبي أبويانا ؟ وماذا يمكن أن نفعل خلاف ذلك ؟ انه لمن المتعذر أن نتزوج وأن نواصل الاعتراف بعقائنا العديدة السالفة » •

فأجابها بالقول : « كلا ! هذا مستحيل ، وعلينا أن نخبر أبويانا بارتدادنا عن العقيدة مهما يكن وقع ذلك ألينا عليهما ، ومن الآن فصاعداً ينبغي أن نكون يا آنسة ليئة ، صفاً واحداً في الفكر والقول والعمل ، وذلك لن يتحقق لو أننا رضينا بولاء متجزئ » •• » ••

وبقلبين مثقلين ، قررا مواجهة أبويهما بحقيقة الأمر دون أن يترددا أمام المحنة إذا كانت نار الحب المتأججة تدفعهما الى ذلك دفعا •

الفصل الثامن

بعد مباحثات عديدة ، قرر زاكارى وليئة تأجيل مواجهة أبويهما الموقرين الى اليوم التالى ، لا سيما أن « واجثورن وزوجته قد طلبا اليهما في عطف بالغ أن يمكثا معهما ليلة أخرى » . واثّر تناولهما طعام الغداء ، انطلقا يتنزهان في حدائق كنسـنجتون ، ولما كانا ، حتى تلك اللحظة ، لا يعرفان من الدنيا سوى المكاتب طيلة الأسبوع وقاعات الاجتماع الفسيحة في أيام الآحاد ، فقد سلب جمال الطبيعة لهما وراحا يستمتعان بالعواطف التى حملت الآخرين على زيارة جبال الألب وشلالات فكتوريا •

وقال زاكارى ، وهو يمتنع عينيه بحوض من زهور التوليب (الخزامى) المتعددة الألوان : « يراودنى التفكير في أن حياتنا الماضية لم تكن تشغلها سوى أمور تافهة محدودة ، ويقينى أن هذه الزهور لا تدين بشيء لعنصر الملبنوم ! » •

فأجابت ليئة : « كم هى منعشة للنفس كلمات الحكمة المناسبة من فمك ! اننى بدورى واثقة من أنه لا دخل للمغنطيسية في خلق هذا الجمال الطبيعى » •

وأجمعا على أنهما يشعران وكأن عقليهما يتسعان وقلبيهما يكبران كلما مر الوقت منذ أن لاذا بالفرار من عبودية العقيدة وريقتهما • لقد نشأ على عبادة القوة ولم يظهر أيهما فى هذا الميدان تفوقا أو انغماسا ، كما أنهما تعلمتا ازدراء كل ما هو دقيق ورقيق ، وكل ما هو هش وسريع الزوال • لقد كان زاكارى يستمتع ، في خجل دفين ، بدواوين الشعراء ، لكن شعوره كان أشبه بشعور مدمن المورفين وهو يتعاطى جرعات منه خلسة • أما هى ففى الساعات المختلسة التى كانت تقضيها في العزف على البيانو كانت تؤثر الأوقات التى تعلم أن أباهما يغيب فيها • غير أنه ، لحسن الحظ ، لم يكن ينعم بأذن موسيقية ، وفي المرات التى أمسك بهاوى تجلس

الى المعزف تسنى لها أن تقنعه بأنها تدرس كتاب ترانيم المخطيسيين • أما الآن فكانا يحسان ، على الأقل ، بأنه لم يعد ثمة مبرر يدعوها الى أن يخجلا من ذوقيهما •

لكن المخاوف لم تتركهما • • مخاوف تتعلق بالعالم وبنفسيهما • • وتساءلت ليثة في شيء من التردد : « أتعتقد أن بوسع المرء أن يكون خيرا دون عون من عقيدة ؟ لقد عشت ، قبل الآن ، حياة لا غبار عليها ، فلم أفه قط بكلمة نابية ، ولم أذق للخمر طعما ، ولم أعان من تلويث التبغ لرئتي ، ولم يحدث مرة أن اضطجعت ورأسى متجهة الى غير القطب المغنطيسى ، كما لم آى الى غراشى في ساعة متأخرة من الليل ، ولم أستيقظ بعد الساعة المحددة • • ولقد لمست مثل هذا التفانى بين أصدقائى • لكن هل يتسنى لى مواصلة الحياة على هذا النحو ، وأنا لم أعد أشعر أن كل عمل أقوم به وكل نسمة أستشقها انما هو ضرب من الولاء والتعبد للأرض المغناطيس الأكبر ؟ » •

فكان رده : « وا آسفاه ! ان عين الأمور المحيرة تضايقنى • واخشى أننى قد أكتفى في الصباح بلمس أصابع قدمى أقل من سبع وتسعين مرة ، بل ربما رضيت بأخذ حمام من الماء الفاتر ، كما أنى لم أعد أثق بأن الخمر والتبغ يقودان الى الجحيم • فما هو مصيرنا وهذه الشكوك تساورنا ؟ هل نسلك سبيل زينة الدنيا وزخرفها الذى يؤدى الى انهيار أخلاقى ودمار جسدى ؟ وما الذى يحفظنا ، ويحفظ الذين كانوا ، من قبل ، شركاء لنا في العقيدة من الانغماس شيئا فشيئا في السكر والعشق والدمار ؟ وماذا يكون جوابنا ، حينما نلتقى بأبويننا ويأخذان في الجدل بأن مذاهب ، كمذاهبيهما ، سواء أكانت على حق أو باطل ، ضرورية لحفظ الجنس البشرى ؟ أننى لا أدرى بعد ما عسى أن يكون ردنا ، فلنأمل أن يلهمنا الغضب الأبوى جوابا حين تحين اللحظة » •

فقالت : « ليت ذلك يحدث ، لكننى أقر بأن المخاوف تستبد بى لأننا ، ونحن مسلمان بقوة العقيدة ، لم نحجم تماما عن الخطيئة ، فقد ارتكبت ، أنت بشعرائك ، وأنا بمعزفى ، خطيئة الخداع • فاذا كنا قد أخطأنا في الماضى فما عسى أن تكون حالنا اليوم ؟ » •

وعادا لتناول الشاي على مائدة أسرة واجثورن مثقلين بهذه الفكرة الكئيبة • يخيم عليهما الغم ويملأ الحزن نفسيهما •

وفي صبيحة يوم الاثنين سعى كل منهما الى أبيه في اصرار على أن يبسط له الأمر كما ينبغي ، وأن يحاولا تحقيق الصلح ان كان ذلك ممكنا . ووجد زاكاري أباه في مكتبه تحوطه المتاعب من كل حذب وصوب ، فالاستقالات قد تراكمت فوق قمطره كما كانت مقالات الهجوم التي نشرتها الصحف التي كانت من قبل صديقة ، نذر خراب ودمار ، فبعد قضاء يوم الأحد في أستجمام واسترخاء قررت غالبية الذين تقابلوا كمؤمنين مخلصين لهذه الطائفة أو تلك ضرورة نبذ الطائفتين سواء بسواء . ففي عشية يوم السبت انضم نصف الجماهير الى مستر تومكنز بينما انحاز النصف الآخر الى مستر ميرو . أما اليوم فان الأعداد التي مرت بالمكتبين ، وإن يكن الوقت غير مناسب للتجمهر ، أظهرت عددا مماثلا لكليهما ، ولم يحم البقية القليلة المؤمنة من العداء الموحد لأولئك الذين أحسوا بأنه قد غرر بهم سوى قوة كبيرة من رجال الشرطة . وإن كان مستر تومكنز ظل متمسكا بإيمانه إلا أنه حار في فهم مقاصد العناية الالهية من السماح بما حدث . وما أن رأى زاكاري حتى ارتسم على محياه بصيص من أمل .

وقال متأوها : « يا للمحن التي تحل بالصالحين ! أما أنت ، يا من علمتك منذ نعومة أظفارك الايمان الصحيح . أنت ، يا من حياتك النقية وايمانك الراسخ هما من أعظم مصادر البهجة والسعادة لحياتي المتعبة . أنت لن تتخلي عني في هذه الساعة الحرجة . لم أند شابا وقد لا تسعفني قوتي في هذه السن في إعادة بناء تلك الطائفة العظيمة من أساسها بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم . أما أنت فيشبابك القوى وحماسك المتأجج الذي لم يشبه شك أو ريبة . فسوف تعيد بناء الصرح المتهدم أشد نقاء ، وأكثر بهاء ، وأقوى اشعاعا من ذلك الذي أحالته محنة يوم السبت أنقاضا » .

وكان لهذه الكلمات وقعها البالغ على نفس زاكاري واغرورقت عيناه بالدموع ، وتمنى من صميم فؤاده أن يجيب بما يتوق أبوه الى سماعه . وما كان ذلك بوسعه ، فقد حال دون ادعائه ما هو أقوى من الشكوك الفكرية التي ساورته حول فوائد الملبندوم الفسيولوجية . فالتفكير في ليئة جعل الخضوع لأبيه أمرا متعذرا إذ أن أباه لا يوافق على الزواج من عضو في طائفة المغنطيسيين ، وأدرك زاكاري أنه لا مناص من أن يفصح عما يجول بخاطره مهما كان الوقع على نفس أبيه ألما .

قال : « أبى ، وإن كنت أرق كثيرا لحزنك ، إلا أنني لا أستطيع تحقيق

رغبتك ، ولقد ارتددت عن العقيدة ، انكم لتؤكدون لنا أن الملبندوم يشفى أمراض الصدر ، لكنك تعلم . . أو على الأقل ارتبت في أنى مصاب بالتهاب رئوى . يقال لنا ان الملبندوم يقوى عضلاتنا ، ومع ذلك فان أى عريبد كافر من الأحياء القذرة بوسعه أن يحيق بى الهزيمة فى أية مباراة للمصارعة ولعل هنالك تفسيراً لهذه الأمور ، لكن ما هو أشق وأعوص هو أننى أحب ليئة ميرو . . »

وشبهق أبوه قائلاً : « ليئة ميرو ؟ »

« أجل ، ليئة ميرو ، وقد وافقت على أن تصبح زوجاً لى ، فهى لم تعد ، مثلى تؤمن بالعقيدة التى ترعرعت بين أحضانها . كما أنها عقدت العزم - مثلى - على أن تسلم بالحقائق المرة مهما يكن فى ذلك من تحطيم لعالم من العقائد عزيز على النفس . ولم تعد عقيدتك أو عقيدة مستر ميري مصدر الهام لحياتنا ، انما نريد أن نحيا حياة لا تقيدها أغلال العقيدة وأن نعيش أحراراً فى أن نقبل ما توحى به الحقائق بعقول متفتحة لمرياح السماء ، غير مغلفة بنظام مريح يشيع منه الدفء الى حد ما ! »

فأجاب أبوه : « آه ، انك تحطم قلبى يا زاكارى ! أنت تطعننى فى الجرح المميت ! ألا يكفي أن العالم قد انقلب ضدى ؟ هل ينضم ابنى الى صفوف أعدائى ؟ آه ، يا له من يوم رهيب ! انك برعونتك القاسية لا تقضى على فحسب بل تحطم عالماً بأسره . ماذا تعرف عن طبيعة البشر ؟ وأنى لك أن تقدر القوى الفوضوية الضاربة التى تطلق سراحها « رياح السماء الطليقة » التى تتحدث عنها ؟ ما الذى ، فى تصورك ، يكبح جماح الناس عن القتل والنهب والدعارة وارتكاب جرائم الاحراق العمى ؟ هل تتوهم أن قوة المنطق التافهة قادرة على تحقيق هذا الهدف العظيم ؟ وا أسفاه ! لقد ضربت سياجاً حول حياتك حتى لا تعرف الجانب المظلم من الطبيعة البشرية . فأمنت بأن اللطف والصلاح ينموان نمواً طبيعياً فى قلب الانسان ، ولم تدرك أنهمما النمو غير الطبيعى لمعتقدات غير طبيعية . هذه هى المعتقدات التى حاولت أن أغرسها فى نفسك ، وفى هذه الساعة الحالكة السواد أعترف بأن هذا ما كانت تضطلع به طائفة المغنطيسيين ، ولازلت أومن بأن عقيدتنا أسمى من عقيدتهم سمو شمس الظهيرة عن آخر بصيص لنور الشفق . مع أن ما تقدمه ليس نور الشفق بل ليلاً مدلهما حالك السواد . ولكم من أعمال شريرة ترتكب فى الليل . فان كان هذا ما تنوى

الاضطلاع به ، فستقوم بينى وبينك عداوة أعمق وأشد ضراوة من تلك
التي فرقت بينى وبين أنصار طائفة المغنطيسيين » .

وجاءت استجابة زاكارى لهذا الحديث بعكس ما كان أبوه يتوقع
إن قال : « كلا ! كلا ! ليس بالزور والبهتان يكون خلاص بنى الانسان ،
فأنت تتوهم أنك تقيم الفضيلة ، ولكن ما الذى تبنيه حقا ؟ انها ثروة
موللى . ب . دين التى تخال أنها امرأة قديسة . هل القداسة هى التى
ألهمتها خدش وجه أورورا بوهرا ؟ وهل القداسة هى التى حملتها على
اخفاء أرباحها المالية تحت اسم شركة المعادن المتحدة ؟ ولم أذهب بعيدا ،
هل تدرك أنك ضحيت بحياتى نتيجة سلامة نيتك ؟ وهل تعلم أنك حرمتنى
مما يحتاج اليه جسمى من علاج إذ لم يكن علاجى من النوع الذى يصنعه
مذهبك ؟ ألا ترى أن هنا ، فى حالتى الخاصة ، عينة من الشرور التى
يقاسى منها أولئك الذين يستعيزون عن الحقيقة بالعقيدة ؟ اننى لا أؤمن
بأن الطبيعة البشرية على هذا النحو من السوء كما تقول . لكن إن جازيك
الصواب فى ذلك فما من نظام مفروض يمكن أن يشفى الشرور ، ذلك لأن
الذين يفرضون تنظيما سوف يعملون بوحى من عواطفهم الشريرة
وسيجدون طريقة غير مباشرة لفرض ضريبة العذاب التى يملها شرهم .
كلا ! انكم لاتفعلون أكثر من تنظيم الشر ، وحين ينظم الشر يصبح أشد
رعبا من أى شىء يتمخض عن تلك العاطفة الفوضوية الطبيعية . وداعا
يا أبى ! إن حبى ووجدانى هما لك . وأما نشاطى فليس كذلك من الآن
فصاعدا ! » .

وبهذه الكلمات انصرف .

واتخذ لقاء ليثة مع أبيها أسلوبا مماثلا كما انتهى الى نفس
المصير . وحاول كل من تومكنز وميرو مواصلة الكفاح القديم ، لكن قدرتهما
على التأثير كانت قد فارقتهما ، ولم يبق من التابعين المخلصين سوى نفر
قليل يعيشون فى مناطق معزلة نائية . واضطر السيدان تومكنز وميرو أن
يخليا مكتبيهما الفاخرين ، إذ لم يعد سيرا ماجنوس ومسز دين يؤمنان
بجدوى ما يدفعانه وبعد أن أصبح الرجلان يعتمدان على هبات البقية
الضئيلة الباقية من التابعين ، بدءا ينحدران الى فقر مدقع .

وظل سير ماجنوس ومسز موللى . ب . دين ثريين ، وإن منيا
بخسائر فادحة ، لكنهما استطاعا أن يعوضا ، الى حد كبير ، هذه الخسائر

بتوحيد مصالحهما ، مما أسفر عن تبدد الخلاف القائم بين الولايات المتحدة وكندا . فتبستمت الحكومتان بالرضى على مشروعاتهما المشتركة . أما أوروبا بوهرا التي لم تتصور أن ما أحرزته من نجاح إنما كان يتوقف على أموال سير ماجنوس فقد بقيت بالمصح تستقبل كماداتها الزوار القلائل الذين مالبثوا يترددون . بيد أن القصر أخذ يتعرض للهجر رويدا رويدا . ولاحظ المؤمنون القلائل ما طرأ على قواتهما من ضعف . وعزا المتعصبون بين من بقى لها من أتباع انهيارها الى تأثير الملبد نوم الشرير ، وعصفت بهم الشكوك في أنها قد ارتدت عن الايمان ، لكن واأسفاه لقد بدأ الدليل على ارتدادها يتضح شيئا فشيئا ، ففي بداية الأمر انغمست في السكر ثم راحت ترتاد مملكة « الحشيش » . وكان لا مفر في نهاية المطاف من حملها بعيدا ، وهى تهذى في جنون ، وتركها في مستشفى الأمراض العقلية تقضى أيامها الأخيرة .

وأما زاكارى وليئة اللذان لم يعرفا الفاقة ، وكان يفترض أنهما سيخلفان أبويهما في مراكزهما المريحة المجزية ، فقد وجدا نفسيهما في حالة احتياج شديد الى بعض مقومات الحياة ، غير أن زاكارى الذى أقنع مستر واجثورن بقدرته على الفهم والاستيعاب والذى نال قسطا وافرا من المعرفة عن طريق قراءاته الواسعة ، فقد عين بتوصية من مستر واجثورن في إحدى الوظائف الصغيرة بوزارة الثقافة . وتزوج زاكارى من ليئة بعد أن ساعدتهما مسز واجثورن في تأسيس مسكن صغير .

وانهمكت ليئة في تدبير شؤون المنزل وفي حبها لزاكارى فلم يكن أمامها متسع من الوقت تشعر خلاله بالسأم والملل ، كما لم يعاودها الحنين الى الحقائق السابقة . أما التكيف بالنسبة لزاكارى فكان أشق وأعسر . لقد كان اتخاذ القرارات في سالف الأيام أمرا يسيرا أما اليريم فهو أمر عسير ، وكان يقف حائرا : هل يقبل هذا أم ذاك ؟ وهل يؤمن بهذه أو تلك ؟ ووجد نفسه يحوطه التردد دون وجود بوصلة بحرية تقود سفينة حياته . وبأت من عاداته أن يقضى أيام الأحاد في مسيرات طويلة على أفراد .

وفي عشية أحد أيام الشتاء ، وبينما هو في طريق العودة منهوك القوى يشق طريقه وسط ضباب كثيف وتتساقط عليه قطرات من الرذاذ ، اذ به يجد نفسه خارج معبد من الصفيح حيث كانت بقية من جماعة الملبدينين مازالت تتعبد ، وعلى نغمات أرغن صغير طفقوا يرتلون تلك الكلمات المعروفة :

الملبدنوم أحسن المعادن

نافع للعظيم والحقير

يشفى جميع أمراض الصدر

وينمى أيضا عضلاتنا

وتنهذ ، وراح يهمهم بالقول : ليتنى أعود الى أحداث الماضي
الرائعة ! آه لكم هي قاسية « حياة المنطق » !

فہرس

رقم الصفحة

٥ - حلم مستر باوذر
٥ - هناء اسرة
١١ - حلم المحلل النفسى
١١ - التكيف - الهروب
٢٣ - حلم الميتافيزيقى
٢٣ - حلم الوجودى
٢٩ - انتصار الوجود
٢٩ - حلم عالم الرياضة
٣٥ - حلم بروفيسير سكويربونت
٣٥ - حلم ستالين
٤١ - الحب يقهر كل شىء
٤١ - حلم ايزنهاور
٤٧ - ميثاق مكارثى - مالىنكوف
٤٧ - حلم دين اتشيسون
٥٥ - انشودة الموت لىنلوس * س * بلوجز
٥٥ - حلم الدكتور سوربثورث فليس
٦١ - انتصار العقل على المائدة
٦١ - زهاتوبولك
١٠٧ - الايمان والجبال

رقم الايداع ٨٥/٧٦٥٧
الترقيم الدولي ٣ - ٠٨٤١ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

